

مهرجان القراءة للجميع

الاعمال الإبداعية

مكتبة
الأسرة
2000

قنديل أم هاشم

يحيى حقى



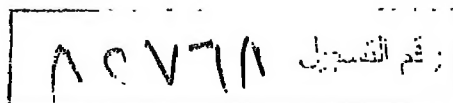
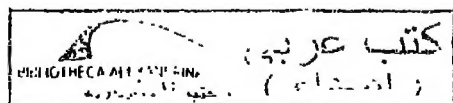
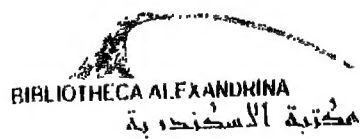
الهيئة المصرية العامة للكتاب



اهداءات ٢٠٠٢

الأستاذ/ الحسيني أمين حنتيره

الإسكندرية



قندیل أم هاشم

قندیل أم هاشم

یحییٰ حقی



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

قنديل أم هاشم

يحيى حقى

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم :

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة، تلك الصيحة التي أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» في مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذي فجر ينباع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذي كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفي مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافي الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التي أصدرت في سنواتها الست السابقة ١٧٠٠٠ عنواناً في حوالى ٣٠٠ مليون نسخة لاقت نجاحاً وإقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى ٣٠٠ ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» في ١٦ جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذي تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. هدير هرحان

أشجان عضو منتسب سيرة ذاتية بقلم يحيى حقي

مطلوب مني أن أكتب هنا سيرتي الذاتية ،

التحدث عن النفس !

ياله من لذة ساحرة ، تواضعها زائف ،

ياله من ملل فظيع ، يستعجب معه الانتحار .

أغلب أحاديثنا — بعد كلمتين ليس غير — تتحول من الموضوع
— أيا كان — إلى الذات ، الشكوى أو الافتخار ، ولكني أحس
أنهما ينبعان من نزعة واحدة متكئة : استجداء تبرير الوجود .
وأنت معذور حين تقرأ هذه السيرة بعد قليل إذا حكمت
— ولا أقول ظننت — أنني لكي أكتبها قد تزيت وجلست أمام

مرآة أنزل ، (كم أود أن يكون بين الاختبارات النفسية دراسة
مجاوبة الشخص لصورته في المرآة : العجب ، عدم التصديق ،
الافتتان ، النفور) ولكن ثق - وهذا عشمي فيك إن كنت
لا تعرفني - أن شيئاً من هذا لم يحدث : أنقلتنى حيلة بسيطة ،
التجأت إلى مقص قطع لي فقرات من أحاديث عديدة ظهرت لي
في الصحف والمجلات (يملأون فراغها على قفانا بالمجان !)
ولصقت بعضها إلى بعض ، مضيفاً هنا ، منقحاً هناك ...

ومع ذلك فصورتي في هذه المرآة هي جلسة أمام فوتوغرافي
محترف ، يسلط على أضواء أضشى لها ، وأعوج رقبتى لكي تعتدل
في نظره ، وأبتسم بلا سبب ، صورتي في هذه الأحاديث مأخوذة
خطفاً - أحياناً وأنا في مبادلي ، فهي أصدق : وهكذا أبرأت ذمتي
منك وزيادة .

ولكن هذه السيرة ستقيس عمري بالسنين والأيام ، وما هو
بالقليل .. طظ ! لا قياس عندي لعمري إلا بهذه اللحظات القليلة
التادرة التي نبض فيها عرق في روعي مهترأً يجذل قلدي عند
التقائي بالفن ، متلقياً ومعبراً . قمة هذا الجذل عند التقائي بالشعر
والموسيقى - على قلم المساواة - ثم النحت ، ثم التصوير ، ثم
العجالة : لست أدرى أين أضع بينها لقاءى برشاقة الإنسان في فن
الباليه .

يعلو كل هذا جندل اللقاء بفن أعظم وأجل : فن الطبيعة
وجمالها ، لو أفضت فيه لاحتجت أن أكتب مجلداً ضخماً ..
لحظات قليلة نادرة ، ولكنني عرفت بفضلها طعم السعادة وحمدت
ربي عليها حمداً طويلاً لا ينقطع ..



ولا ولوج إلى ساحة السعادة - في اعتقادي - إلا من أحد
أبواب ثلاثة : الإيمان والفن والحب ، لا شيء يشع بها مثل هذا
الخشوع الذي أراه في المعابد . وإذا كان الحب هو أكثرها التصاقاً
بالصلصال والحمأ المسنون ، وبالزمان والمكان والصدف ، فإنه
شرط ارتفاع الإنسان عن مرتبة الحيوان ، وكان الإيمان أكثرها
طموحاً لأنه يطلب الله لا الناس ، الخلود في الآخرة لا العبور
في الدنيا ، فسيبقى الفن وسطاً جامعاً للطرفين ، يالها من منزلة !

وقد عرفت مقامى منذ وعيت لهذا العرق الذي ينبض في
روحي ، لست من الملهمين ، ولا لي صاحب في وادى عبقر .
الإلهام نور ساطع كاشف لجميع آفاق الروح والعالم ، يهبط على

من يختاره دون سبب ظاهر ، فيلتقاه بغير سعى منه إليه . ما أبعد الفرق بين هذا النور وبين أزيز الشرارة الخاطفة التي أحس بها وهي تنقد أحياناً فجأة ثم تنطفئ لتوها . إنها لاتنير لى إلا درباً ضيقاً وسط غابة كثيفة ، يؤدي إلى كتز صغير لايفرح به الأثرياء .. حتم على أن أشرئب لكي أصطادها (وضعت هذا في قطعة بعنوان « الشاعر بصير » ستجدها في أحد مجلدات هذه الطبعة) — تنطفئ هذه الشرارة وتتركني لكي أشقى غاية الشقاء ... حتى يتفصده العرق من جبينى من أجل أن أصل إلى هذا الكثر الذى رأيت — بل قل جلسته — من بعيد ، كأنى ألتحت فى صخر ، وحتم على أن أزيل عن العمل كل آثار العرق ، ليظن الناس أنها ولادة سهلة .

إننى ممن يدخلون معبد الفن من أشد أبوابه ضيقاً وعسراً ، وليست هذه الشرارة بزوارة ، لهذا كنت من المقلين ، أسمعهم يعيبون هذا على ، كأنهم يطلبون منى أن أكون من المدلسين . . يكفينى الصديق .

ومع هذا فان عمرى القصير فى الفن — إنه مجموع لحظات خاطفة عابرة — قد تجاوز نصف قرن ، وأحمد الله على ذلك ، لأن هذا الطول أتاح لى أن أشهد فى نفسى تحولا عجيبا ، ولولاه لما شهدته .

كانت الذات تندلق على الموضوع فى مطلع هذا العمر . هذا الاندلاق سهل ، وله فرحة ، واسترضاء للأناية . وكنت

أشعر بشيء من الضيق دون أن أعرف سببه على وجه اليقين
سببه أنني كنت خاضعا لبداية لا بد منها : إنها مرحلة ستمر
ولكن متى وكيف :. إنها حموة الموسيقى !
وبدأ التحول شيئا فشيئا حتى تم أواخر عمري ، أصبحت
الآن أحس إحساسا واضحا قويا أنني لست إلا بوقا ، لا قيمة له
في ذاته ، ولكن قيمته أن إرادة لاندري سرها قد اختارته لكي
تهمس منه - على تقطع - سليقة اللغة والتراث ، مختلطة بأشجان
الإنسان منذ أعز أجدادي - ساكن الكهوف - حتى اليوم ..
أشجان الإنسان - أولا - في علاقة روحه بربه ، نسيانه لها - كما
قال هو في كتابه - أشد عذاب تتوجع له وتئن .. بالكون :
أين وكيف ينسلك في نظامه ، يخلل خاتمه .. بالقدر : بين الثورة
عليه والرضاء به :

ينعكس هذا كله على المجتمع المتقلب ليستطيع أن ينطق بلسان
إنسان ويجد من يفهمه ، فليس من المفارقات قولي : إن الفن للفن
هو المخل الوحيد للفن من أجل الحياة :

ورغم أن هذا البوق قد عزلني فقد استطعت أن أعرض للذة
البوح بلذة المراقبة ، كأني شاهد واقف على جنب ، يطل على
شيء عجيب يحدث أمامه ، ويحاول فهم سره ، ثم لا ينقض
عجبه منه ، الفن بهذا المعنى هو النعمة لا الوتر ، الزهرة لا البستان ،
النشوة لا قية الحان .

ولو بقيت وحدي لزهقت روحى ، أو جفت وذرتها الرياح ،
لا بد للنحلة من خلية : وجدت الصعجة والراحة والاطمئنان ،
كما وجدت المدرسة التى أستكمل فيها تعليمى حين قدمت مارضيت
عنه من أوراقي إلى ناد عجيب . إنه وقف على من لمسهم الفن بعصاه
السحرية ، أياً كان عصره أو لغته أو دينه أو جنسه أو لونه ،
والرجال والنساء سواسية — هم داخله أحياء ، بينهم تواصل الأخوة
وتراسل لا ينقطع ، فسمح لى أن أنضم إليه ، عضوا منتسبا !

عرفت أننى — حتى قبل انضمامى إليه — كنت أكتب لهم .
هم الذين يطلون على من وراء كتنى وأنا أكتب ، أصبح رضاؤهم
هو مطلبى الوحيد . لا تخلو ورقة لى من أثر خاف لبصابتهم ، أو من
إشارة مستترة إلى أعمالهم ، فلغة أهل هذا النادى صريحة « وشفرة »
فى آن واحد ، ولا تجد حريتها إلا فى استعبادهم لها .

وأول مادة فى قانون هذا النادى هو توقيع الكلمة سواء كانت
من حروف أو أنغام أو حبر أو لون .

لا طرد من هذا النادى لجريمة سوى جريمة العبث بكرامة
هذه الكلمة .. فماذا يبقى لهم ؟ .. ليس لهم جزاء سواها .



رضيت بنشر هذه الطبعة الكاملة لمؤلفاتى لقيمتها التاريخية
أولا ، فالمتاحف قد تكون أولى بها من المكتبات — فأنت ستطل

على مسار نصف قرن ، يفترق عن المسارات الأخرى ، فإنه لم يأخذ من حيث انتهى سابقه مع تماثل أو تقارب في المستويين ، بل أخذ بدايته من البداية ، فكتبت له الريادة ولو رغم أنه ، لذلك كانت خطواته الأولى عسيرة متعقدة .

كان علينا في فن القصة أن نفلح نحالب شيخ عنيد شحيح ، حريص على ماله أشد الحرص ، تشته قبضته على أسلوب المقامات ، أسلوب الوعظ والإرشاد والخطابة ، أسلوب الزخارف والبهرجة اللفظية والمترادفات ، أسلوب المقدمات الطويلة والخواتم الرامية إلى مصمصة من الشفاه ، أسلوب الواوات والفئات والثبات والمعدن لكات والرعمد لكات واللاجرمات والبيدأناث واللاسيات ، أسلوب الحدوتة التي لا يقصد بها إلا التسلية .

كنا نريد أن ننتزع من قبضة هذا الشيخ أسلوبا يصلح للقصة الحديثة كما وردت لنا من أوروبا ، شرقها وغربها (ولا أنحول عن اعتقادى بأن كل تطور أدبي هو في المقام الأول تطور أسلوب) .

كان علينا أن نضرب على يده من يحكى لنا قضية جنائية ، ويقول اكتبوها فهي قصة جميلة حقا ، ونقول له : القصة شيء مختلف أشد الاختلاف . وكان علينا آخر الأمر أن يقبل الناس إدعاء إنسان ما أن له الحق في إعادة صياغة الواقع ، حتى ولو وقف عند هذا الحد ولم يصف قوله : إعادة صياغة بحرية لها أخلاقياتها

التي قد تعد عند الناس زينا أو اجتراء ، كان من السبيل أن يتقبل الناس هذا ، وأعترف لك أنني إلى اليوم أنتفض من شدة الضيق والكرب حين أقرأ : الفنان الخالق ، فلان خلق هذا العمل ...

إني لا أعترف بخالق إلا بالله وحده ، أحب أن أكتب بلها : هذا هو ابتكار الفنان ، الفنان المبتكر ، (لعل هذا هو سر موقف المسلمين - ولا أقول الإسلام - من النحت والتصوير) .

وكان لابد لنا أن نعمل حتى يكف الناس عن سؤالنا : وما هو المقصود من هذه القصة ؟ تلك العبارة التي كانت ترد بعد ختام كل حكاية في كتاب القراءة والمطالعة ، فالمقصود من حكاية أن علموا عاقلا خير من صديق جاهل ، وأن العاقل من اعطى بغيره والجاهل من اعطى بنفسه .

ومما زاد من المشقة والعسر في الخطوات الأولى أن الفصحى لم تكن قد أفلحت بعد في أن تسمى لنا أشياء نلمسها بأيدينا أو أفكارا مجردة تطوف بعقولنا ، أو ظلال عواطف تلم بقلوبنا ، وإذا صدقنا عددا غير قليل من المستشرقين لاعتقدنا أن هذه المشقة لم تكن عاقلة بمرحلة البداية وحدها ، بل هي ممتدة لأنها ناجمة من خصائص الأسلوب العربي ، فهم يصفونه بأنه أسلوب يسير على خط أفقي مستقيم ، سطح ولا عمق ، لا يتركب منه بناء ينمو شيئا فشيئا ، إنه دلق البضاعة كلها دفعة واحدة أمام الزبون ، إنه - كما في مادبنا -



وضع جميع الأطباق على المائدة في رتل متلاصق قبل جلوس الضيوف ، فالذى ينبغي أن يؤكل ساخنًا يؤكل بارداً ، ويزعمون أن أسلوب اللغات الغربية — وبالأخص الإنجليزية والفرنسية — هو أسلوب يشبه عمل فنان يرسم لوحة ، إنه يبنّيها خطاً خطاً ولمسة بعد لمسة من فرشاته ، ناظرًا طوال الوقت إلى التناصب والشكل التركيبي للوحة وموضع كل خط وكل لمسة فيه ، بل إنهم يذهبون إلى حد تفضيل الجملة الاسمية — وهى من خصائص لغاتهم — على الجملة الفعلية وهى من خصائص العربية ..

وكل هذا كذب فى كذب ، وحاجة ليس بعدها حقاقة ، فليست اللغة كائنًا مستقلاً عن الفكر الذى يقودها ، فحين يلزم الفكر المستخلم للعربية ماينبغي لكل فكر ، من وضوح وبصر وجد.

وعمق ، فإن لغتنا الفصحى لن تكون أقل قدرة على الأداء من لغات هؤلاء المستشرقين الأجلاء ، فالعيب ليس فى اللغة ، بل فىنا نحن أنفسنا .

ولكن ينبغى لى أن أعترف وأقرر أن مشقة الخطوات الأولى فى انتزاع أسلوب القصة من أسلوب المقامات تمثلت أكثر مما تمثلت لدى من كان يقرأ الآداب الغربية بلغتها غير مكتف بالترجمات إن وجدت ، فإن الذى كان يراد اقتباسه من الغرب لا فى القصة وحده بل أسلوبها وصياغتها ، وتستطيع إلى اليوم أن تلاحظ الفرق بين أسلوب قصصى له اطلاع على الآداب الغربية بلغاتها وأسلوب قصصى لا يعرف غير العربية .

وقد داعبتنا اللغة العامية أول الأمر فهمنا أن نجرى إليها - لا هربا من مشقة الفصحى فحسب - بل لأننا كنا نتلهف أن يكون الأدب صادق التعبير عن المجتمع ، ولكننا تحولنا - كأنما بدافع غريزى - إلى الفصحى ، لأنها هى الأقدر على بلوغ المستويات الرفيعة ، على ربط الماضى بالحاضر ، على توحيد الأمة العربية ، ومن الممتع أن ندرس كيف سابر تأثير العروبة على الأدب المصرى تأثيرها على سياستنا القومية .

وما زاد من المشقة والعسر فى الخطوات الأولى أننا - نحن القصصيين - كنا نعيش فى شبه عزلة عن أبناء الفنون الأخرى ،

مع أن المشككة عندنا جميعا واحدة ، ولا بد أن يتفجع بعضنا بتجارب بعض . انكى يتساوى الخطو إلى الأمام على الأقل في جميع ميادين الفن . بسبب هذه العزلة كان لابد لعملنا أن يكون هشا وقهرا مهما ملك من ماله الخاص ، (لهذا الفقر أسباب أخرى ، أعرضها فيما بعد) أقول : كنا في شبه عزلة ، إذ كانت لنا اتصالات لم تتصف بالنشاط مع أبناء الفنون الأخرى . نعد أنفسنا زمرة واحدة تضمنا وتضم مختارا ، وسيد درويش ، ويوسف كامل ، وأحمد صبرى .. وعددا آخر غيرهم .

والعجيب أن هذه العزلة ممتدة حتى اليوم ، بل يخيل لي أنها تفاقمت ، وكان المنتظر وقد زاد عدد المشتغلين بالفنون اليوم عن عددهم في أيامنا الأولى أن تعمل هذه الزيادة على تيسير القضاء على تلك العزلة ، فإذا بها تزيدها مشقة ، فلا لقاء في زحام شديد .



لم نكد نضع أقدامنا على أول الطريق حتى طارت بنا آمالنا ، كأن القصة وقد سكنت لاقتحامنا لحماها ، فأردنا أيضا أن ندخلها . ببحارنا ، لم نكتف بالاعتداء بالقصة المستوردة ، بل أصبحنا نطمح في أن ندخل تجديداً على شكلها داخل إطارها الذى عرفناه لها . أى دون أن نخرج عنه ، فكان منا من سبق إلى كسر الترتيب الزمنى ولجأ إلى « الفلاش باك » ، أو من زعم أنه كتب قصة لها شكل دائرى ، أى تنتهى من حيث بدأت .. الخ الخ .

ثم قفزنا بعد ذلك سريعا إلى مطلب أهم ، أن تكون لنا قصة
مصرية للحما ودما ، تنبع من خصائصنا وتدل علينا . . . لكننا لم
نستطع أن نتقدم في هذا الطريق (لذات الأسباب التي وعدتك
أن أعرض لها فيما بعد) وكان لابد لهذا المطلب أن ينتظر حتى تمتد
الفنون الشعبية رواقها في ظل الاشتراكية ، وتمثل تحقيق هذا
المطلب أكثر ما تمثل في المسرح .

يجب أن أعترف أن أغلب المنجزات في هذا الميدان غير
مقنعة ، وتبدو أحيانا مضحكة . إن اعتناقنا للاشتراكية لم يفرض
أن يندرج أدبنا وآداب الأمم الاشتراكية في وحدة واحدة ، ناجمة
من وحدة المذهب ، أو وحدة المجتمع الذي قام أو يراد إقامته ،
ولكننا قلنا إن اشتراكيينا مصرية ليست صورة طبق الأصل من
نظام اشتراكي أجنبي . لذلك ساغ حتى في ظل الاشتراكية السعي
إلى ظهور أدب على صميم .

وبجانب هذا التيار تيار آخر ، تيار ثقافة مترفة تقول بعالمية
الفن دون نظر إلى انقسام هذا العالم إلى اشتراكية ورأسمالية ، فالفن
عنده جوهر واحد لا يقبل الانقسام ، وله هدف واحد لا يتعدد .

وقد حاولنا عقد صلح بين التيارين قلنا : إن كان الفن نهرا
عظيما فلائما له روافد عديدة ، كل منها له ذاتيته وخصوصيته ،
ويجب أن نعمل وفقا لهذا الفهم .

لكى أشرح الأسباب الأخرى لهذا الفقر الفنى الذى عانيد
 فى مراحلنا الأولى دعنى أُلجأ إلى التشبيه فإنى من المغرمين به ،
 حصيرة الصلاة عندنا ، قد تعد نقوشها — مهما بلغت بساطتها —
 تعبيراً عن ذوق فنى جميل وأصيل ، ولكن اقلبها وتأملها ،
 ستجدها مجدولة من ساقين لا غير من سيقان القش ، حتى بالعرض
 وحده ، دون الطول ، ارتفاع سطحها عن الأرض يحدده غلظ
 الساق وحده ، حقاً لها ظاهر وباطن ولكن ليس لها عمق . قارن
 بها سجادة عجمية ، دعلك من فنون سطحها — بهرجة ووقار
 وأصالة مولودة فى عصر حديث — اقلبها وتأملها ، ستجدها
 سيمفونية من خيوط متشابكة من عقد عديدة ، وكلما زادت العقد
 زادت القيمة ، لها دون الحصيرة عمق وتشابك .

كان المجتمع الذى بدأنا كتابة القصة فيه يشبه هذه الحصيرة ،
 فكان لا بد للقصة أن تكون مثلها فى البساطة والسطحية ، وكيف
 تريد لها أن تثرى وتتعمق دون أن يكون يجانبها حركة نشيطة فى
 الفلسفة ، فى الاجتهاد الدينى ، فى الدراسات التاريخية واللغوية —
 مجتمع بسيط ، لا انكشاف بعد فيه لفروق بليغة ومصادمات بين
 المصالح ، كان هناك جوارٍ لا اشتباك .

إن ثراء تسيج المجتمع فى الحضارة الغربية ليس سببه تشابك
 خيوطه فحسب ، بل لأن هذا التشابك يجد أسانيده فى مقولات

الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد ، ولكن المجتمع الغربي يشترى هذا الثراء الآن بثمن باهظ ، هو تفتت الشعب إلى خلايا مغلقة على ذواتها ، لا تدافع إلا عن مصلحتها هي أولا ، فلنحذر هذا ..

وقد تجلى هذا الخلاف بين حصيرة الصلاة والسجادة أكثر ما تجلى في الترجمة ، فهي ليست نقل لفظ إلى لفظ ، وحتى لو كان الأمر كذلك ففي اللغات التي نترجم عنها تنشأ كل يوم تقريبا ألفاظ جديدة ليس لها مقابل عندنا ، إنها ليست ألفاظا مبتكرة ، فقد انقطع عهد الابتكار في اللغة ، بل هي ألفاظ مألوقة ولكن خصصت لها معان جديدة لم تكن لها من قبل ، فاستقلت بها دون معانيها السابقة ، أومع معانيها السابقة ، وأصبحت الألفاظ غير معبرة عن معانيها فحسب ، بل عن علاقات يعكسها نسيج المجتمع .. فلا يمكن أن نترجم سجادة عجمية إلى حصيرة صلاة .

ولا ينطبق هذا الكلام بطبيعة الحال على الترجمة في ميدان العلوم ، ولكن أصدق مثال عليه نجده في المسرح ، وهو أكثر الفنون عكسا للمجتمع إذ يتكلم بلغته . ما أكثر ازدحام مكتبتنا العربية بمسرحيات مترجمة ، لماذا لانعرف أن العديد منها غير مفهوم ، بل بعضها يدعو إلى الضحك .

لا شك أن مجتمعا يتحول بسرعة من هذه الحصيرة إلى تلك السجادة ... ومع انتشار التعليم ومحو الأمية سيرا إنتاجنا الأدبي

من الضحالة والسطحية ، ومن هذا القدر الهائل من البديهيات ،
وكل بديهية لها رنين الحكمة ...

كل هذا ولم أقل لك كلمة واحدة عن سيرتي وحياتي .. إليك
بعضها مما يزيد ..



في أوائل القرن التاسع عشر قدم إلى مصر من مسلمي المورة
شاب اسمه ابراهيم حتى ، كانت خالته الست حفيظة — خازندارة
قصور الخديوى اسماعيل ، وبواسطتها عين قريبها الوافد في خدمة
الحكومة المصرية . عمل فترة بدمياط ، وتدرج في الوظائف حتى
أصبح مديرا لمصلحة في بندر المحمودية بمديرية البحيرة .

وظل أهل ذلك البندر يذكرون له — بعد وفاته بسنوات —
صلاحه وتقواه وجمال خطه . وقد رزق ابراهيم حتى بثلاثة أبناء هم
محمد ، ومحمود طاهر ، وكامل ، واستطاع أن يقتنى حوالى :
مائة فدان .

التحق ابنه الأكبر محمد - وهو أبى - بالأزهر عدة سنوات ،
ثم انتقل للدراسة بمدرسة فرنسية ، ولكنه لم يصبر حتى يتم تعليمه ،
وآثر الالتحاق بوظيفة بوزارة الأوقاف ، وإن ظل مشغولاً بالقراءة ،
مغرمًا بحفظ روائع الأدب العربي القديم ... روى لنا أنه خلال
مجاورته بالأزهر كان يصلى الجمعة ذات مرة فى مسجد غاب عنه
إمامه ، ولأنه كان معهما فقد دعاه المصلون إلى ارتقاء المنبر وإلقاء
الخطبة ... فلم يجد مخرجاً من تلك الورطة إلا أن يتلو عليهم جزءاً
من مقامات الحريري أوله « أيها السادر فى غلوائك ... » فدهش
المصلون لفصاحته وحضور بديته ، وإن لم يفهموا من الخطبة
شيئاً !

وكذلك لم يتم الابن الأوسط محمود طاهر حتى - وهو عمى -
تعليمه ، ولكنه اتجه بكل قواه إلى الكتابة والتأليف ، ومن أهم
مؤلفاته رواية « عنراء دنشواى » التى نشرها سلسلة سنة ١٩٠٦
فى صحيفة كان يصدرها اسمها « المجلة الأسبوعية » ، وكان الشاعر
أحمد شوقى ينشر فيها بعض قصائده بأسماء مستعارة .

ولعمري محمود طاهر حتى عدد كبير من القصص والمسرحيات بعضها مطبوع ، وقد عمل فترة طويلة سكرتيراً للفرقة القومية منذ كان مديراً الشاعر الكبير خليل مطران .

وفي الحمودية كان من الطبيعي أن تتوثق العلاقة بين أسرة جدى وأسرة « السيد حسين » وكيل مكتب البريد ، فهو الآخر من أصل تركي وزوجته أرناؤوطية (ألبانية) . وما لبثت هذه العلاقة أن تطورت إلى نسب ، إذ تزوج الابن الأكبر محمد من « سيدة » ابنة السيد حسين . وأثمر هذا الزواج عدداً كبيراً من الأبناء إبراهيم ، واسماعيل ، ويحيى ، وزكريا ، وموسى ، وفاطمة ، وحزمة ، وصالح ، ومريم ...

كنت أنا الابن الثالث بين إخوتي ... ولدت في ٧ يناير سنة ١٩٠٥ بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب في بيت ضئيل من أملاك وزارة الأوقاف . ورغم أننا غادرنا حي السيدة وأنا لا أزال طفلاً صغيراً ، فبهيات أن أنسى تأثيره على حياتي وتكويني النفسي والفني ، فما زلت إلى اليوم أعيش مع الست « ماشاء الله » بائعة الطعمية ، والأسطى حسن حلاق الحى ، وبائع الدقة ... ومع جموع الشحاذين والدرأويش الملتفين حول مقام « الست » ..

كانت والدتي شديدة التدين ، مغرمة بقراءة القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة النبوية ، وكانت تختار أسماء أبنائها من

صفحات القرآن ، فاذا اقرب موعد الوضع فتحت المصحف على
أى صفحة واختارت أول اسم يقابلها ... وكثيرا ما كانت تقرأ
علينا صفحات من البخارى والغزالي ومقامات الحريري ...

وكان أبى مفتونا بالمتنبى يحفظ كثيرا من شعره ويلقيه علينا
فى جلساتنا المسائية ... وكُنّا مغرما بالقراءة إلى أبعد حد حتى إنه
كان يقرأ وهو يسير فى الطريق ... وما زلت أذكر كيف عاد لنا
ذات يوم وجبهته مبطوحة قد نبتت فيها حبة زرقاء ، فقد صدم
عمود الترام ، وهو سائر يقرأ فى صحيفة ١.

وهكذا نشأت فى بيئة تعشق القراءة ... والدتى وأبى .. وكذلك
أخى الأكبر ابراهيم الذى يعرفه جميع باعة الكتب فى مصر ،
جديدها وقديمها ... لقد كون لنفسه مكتبة عربية وانجليزية كانت
أول معين استقيت منه ... وقد شارك أخى ابراهيم فى تحرير جريدة
« السفور » ... أما أخى اسماعيل فقد ألف مسرحية لم تمثل ،
بالإضافة إلى جهود عمى محمود طاهر حتى فى القصة والمسرحية
والصحافة ..

أذكر أنه حينما كانت تظهر قصيدة لأحمد شوقى فى الصفحة
الأولى من « الأهرام » كان البيت كله يقف على رجل .. كنا
نقرؤها بصوت عال ونحفظها ونظل نرددتها فى مختلف المناسبات .
من هذه القصائد قصيدته فى البكاء على خلع السلطان عبد الحميد
وما زلت إلى اليوم أحفظ مطلعها :

«سل «يلدزا» ذات القصر ور هل جاءها نبأ البلور
لو تستطيع إجابة لبتك بالدمع الخزير»

وكان عمى محمود طاهر على صلة وثيقة بشوقي ، وعن طريقه
أتى لي الجلوس إلى شوقي عدة مرات سواء في محل «صولت»
الخلواني أو في بيته . وفي إحدى تلك المرات أعطاني قصته «أميرة
الأندلس» وهي مخطوطة لأبدي فيها رأيي ، وكنت وقتها لا أزال
شابا في السادسة عشرة ، ومع ذلك فقد تجرأت ونقدتها بشيء من
العنف ، وكان ذلك غرورا مني ندمت عليه فيما بعد ...

كان الجلو الغالب على بيتنا يتلخص في ثلاثة مظاهر :

الأول : شغف برشاقة اللفظ ، والابتهاج بالتوفيق في العثور
على الكلمة المناسبة للمعنى . لذلك كانت الخطابات التي نتبادلها
تكتب بأسلوب أدبي متأنق .

الثاني : نوع من الحياء يتنبه لزلّة اللسان مهما كانت طفيفة .

والمظهر الثالث يتمثل في قدر من الانطوائية لأننا كنا أسرة
موظفين من أصل تركي وليست لنا أملاك تذكر ، بعد أن أساء
الأبناء إدارة الأراضي التي ورثوها عن جدى ، حتى أصبح
وجودها كعدمه ، ثم ما لبثت أن تبددت .



بدأت تعليمي في كتاب السيدة زينب ، ثم التحقت - كسائر
إخوتي - بمدرسة والدته عباس ، وكانت مدرسة مجانية من أوقاف
إلهامي باشا ، وكان يلتحق بها أبناء الفقراء في حين كان أبناء الأغنياء
يلتحقون بمدرسة الناصرية . وكانت تلك المدرسة تتلح على تلاميذها
حلا خاصة كتب عليها بالقصب المذهب « مدرسة والدته عباس
باشا الأول » .

قضيت في المدرسة الابتدائية خمس سنوات غاية في التعمسة .

كانت ضربات عصي المدرسين تجعل الدنيا تظلم في عيني ، كما كنت
أتعذب علابا هائلا وأنا أحشر دماغي بمعلومات لا أكاد أفهم منها
شيئا ولا لماذا يعلمونها لنا ... أؤكد لك أني لم أفهم الفرق بين الرى

الدائم وري الحياض إلا بعد أن تخرجت وعملت معاون إدارة في
الصعيد ..

كان طبعيا أن أرسب في السنة الأولى الابتدائية ، ولكني
لم أرسب بعد ذلك قط .. كنت أنجح كي أفر من هذا الجحيم ،
ولكني لا أغضب أمي أو أجرعها خيبة الأمل .. كانت هي عماد
الأسرة .. ربنا يديها ، تحيط ثيابنا ونحنسة ، تطبخ وتطعمنا
متكلفة في ذلك أشد العناء ، متحيلة للوصول بنا مستورين لآخر
الشهر . إذا قدمت لنا طعاما نذرا لا يفي ولا يسمن من جوع
ضاحكتنا وصبت علينا ضحكة مرحة ، كأنما اجتمعنا حول المائدة
لعبة مسلية ، فكنا - على ضحكها - ونحن نعلم أنه تمثيل ، نجد
الطعام وفيرا مشبعا للذيل ، وهي التي ربنا بلسانها ، تمحنا بغير
الحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة ، كسوط صاحب الجواد
الأصيل ، له وقع وليس له لسع .

لا يفوتني أن أذكر للمدرسة « والدة عباس » ميزتين :

الأولى أنها هي التي خرجت الزعيم مصطفى كامل ، فقد كان
بيته قريبا منها ، وحينما التحقت بالمدرسة كان كل المدرسين الذين
علموه قد تركوها الا واحدا هو الشيخ عبد المنعم . ، وكان يلقي
الاحترام والتبجيل من الجميع لأنه كان يوما مدرسا للزعيم .

أما الميزة الثانية لتلك المدرسة فتتمثل في تلك الصداقات العميقة التي ربطتني بعدد من تلاميذها ، فمازلت محفظة إلى اليوم بصداقتي للأستاذين محمد عصمت ومحمد ليب الجبالى ، ومازلت أذكر بالخير صديقى المرحوم محمد ذو الفقار الأخ الأكبر للممثل صلاح ذو الفقار ، والمرحوم مصطفى حسن النائب العام السابق .. كلهم تعرفت بهم فى مدرسة « والدة عباس » الابتدائية ..

حصلت على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية سنة ١٩١٧ ، والتحقّت بالمدرسة الالهامية الثانوية (بنياقادن الآن) وكانت تتبع نفس الوقت الذى تتبعه مدرسة « أم عباس » ، ومنها حصلت على شهادة الكفاءة ، ثم انتقلت إلى المدرسة السعيدية ، فالخديوية ومنها حصلت على البكالوريا سنة ١٩٢١ وكان ترتيبى الخمسين بين المتقدمين لتلك الشهادة .

كنت فى صباى أتمنى أن أصبح طبيبا لأنى أعشق اكتناه ذلك المجهول الكامن داخل جسم الإنسان ورأسه ، فأردت أن أتفرغ للدراسة أسباب علله وأمراضه ، وأسهم فى إسعاف من يحتاجون إلى العون والمساعدة ، وكذلك كنت أؤمن بأن المهنة الحرة هى أفضل عمل للإنسان فهو فيها سيد نفسه .. وبعد حصولى على الكفاءة وقفت فى مفترق الطرق . . .

كان من الطبيعى أن ألتحق بالقسم العلمى لأحقق أمنيى ولكنى

خشيت أن أرسب سنة أو أكثر ، وأشفقت أن أحمل الأسرة مزيدا من الأعباء والمصروفات ، فأثرت الالتحاق بالقسم الأدبي .

والتحقت بعد ذلك بمدرسة الحقوق العليا ، في وقت كانت تمثل فيه قمة التعليم العالي ، لا يدخلها إلا المخطوظون ، وكان من زملائي فيها الأساتذة: توفيق الحكيم، والدكتور عبدالحكيم الرفاعي وسامي مازن ، وعبد الكريم أبو شقه ، والمرحوم حلمي بهجت بلوى . ودرس لنا نخبة من أساتذة القانون وفقهائه ، أذكر من بينهم الاستاذ الشيخ أبوزيد مدرس الشريعة .. كان رجلا دأب الابتسام يعالج الشريعة حتى يحيلها شرابا سائغا لو استطاع لصبه في حلوقنا صبا . . والأساتذ أحمد أمين ، العالم الثبت في قانون العقوبات ، والمرحوم الدكتور أحمد نجيب الهلالي.. حين دخل علينا أول مرة حسبناه — لنحافته وصغر سنه — تلميذا مثلنا ، وما كاد يتكلم حتى انعقدت ألسنتنا وفغرت أفواهنا إعجابا به ، فقد هدم في درسه الأول كل ما بين أيدينا من كتب قديمة بالية بكلام جديد تشع منه الحياة . .

حين التحقت بكلية الحقوق كنت متشعبا بمبادئ الحزب الوطني ، فقد كانت « اللواء » هي جريدة الأسرة المفضلة ، وإن لم يمنعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة أحداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة ، فما أكثر ما كنت أصحب أبي وشقيق

إبراهيم وإسماعيل إلى الأزهر أو بيت الأمة، أو شادر مقام في ساحة
فسيحة لأستمع إلى خطباء الثورة ، وتبهرنى أصواتهم المجلجلة حتى
أصبحت الخطابة من بين شراياتى :

وأحيانا كان الإنجليز يسدون الطرق المؤدية للأزهر ليمنعوا
الجهال من حضور اجتماعات الثورة ، فكنت أسير مع أبي
وأخوى في طرق ملتوية وأزقة ضيقة حتى نصل إلى الأزهر
ونستمع إلى خطباء الثورة ، ونردد مع الجموع أناشيدها ،
ومازلت أحفظ من بينها نشيدا مطلعہ :

رسول السلم إلى مصر . انثر في الطرق لنا الزهر

وكان أفراد الأسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل إلى أيدينا
من منشورات الثورة . . وقد سرت في بعض المظاهرات الصاخبة
التي كانت تكتسح شوارع القاهرة ، وحين كان الإنجليز
يطلقون علينا النار كنت أجرى مع الجارين .

ومازلت أذكر إلى اليوم الجموع الغفيرة من جميع طبقات
الأمة التي خرجت لتشيع جنازة ابن القبايبي في حى الركبة .
وكان قد قتل برصاص الإنجليز . .

في تلك الأيام قرأت كل ما وقع في يدي من كتابات عبد الله
النديم ومصطفى كامل ، وكل ما نشر عن حادثة دنشواى . . وهكذا

التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشيع وجداني حتى الثمالة بحب مصر .. وعندما حدث الخلاف المعروف بين سعد وعلي ، بين الوفد والأحرار الدستوريين .. اجتاحت بيتنا موجة عارمة من الكآبة وخيبة الأمل لفرقة الصف الوطني ..

قبل أن ألتحق بمدرسة الحقوق كنت قد التقيت بمؤلفات المنفلوطي وجبران خليل جبران :. جرت دموعي مع « ماجلولين » ، وترنمت بشعر المهجر وأنا في الخامسة عشرة من عمري .. وقادني أخى إبراهيم في دروب الأدب الانجليزي فقرأت كتباً لديكتر وروبرت لويس ستيفنسون وآديسون وغيرهم ...

أما في الحقوق فقد كان على أن استكشف قارة جديدة مختلفة عن منطقة الأدب والفن والشعر والتاريخ والسياسة التي تعرفت عليها من قبل .. عرفت في مدرسة الحقوق أن القانون رياضة ذهنية عليا ، تقارع فيها الحججة بالحجة ، والإثبات بعدم الإثبات :

ودخلت مع زملائي في المدرسة في سياق حامى الوطيس كانت حدثه تزداد كلما اقتربنا من التخرج .. وانكبت على كتب القانون ألهمها وثمة حلم يراود خيالي بالسفر لإتمام دراستي في جامعات أوروبا ، حيث البحث العلمي الحر وعباقره فقهاء القانون وكاد الحلم يتحقق لولا هامش في أحد الكتب عن الاتفاقية المصرية السودانية بشأن تسليم المجرمين ، أهملت ذلك الهامش وكان

موضع سؤال ، فجاء ترتيبى الرابع عشر فى الليسانس ،
وسافر الأربعة الأوائل : حلمى بهجت بدوى ، وطه السيد نصر ،
وعبد الحكيم الرفاعى ، وطالب رابع يدعى زهدى .. فى بعثات
إلى الخارج ، فى حين بقيت أنا أقضى فترة التمرين بنبابة الخليفة
ثم أعمل محاميا بالاسكندرية ودمهور فترة قصيرة ، عينت بعدها
معاوننا للإدارة ..

ومن أبرز آثار دراستى للحقوق شغفى الواضح بدراسة الجريمة
والجرمين .. لعلها مخلفات رغبى الدفينة فى دراسة الطب واستكشاف
كنه تكوين الانسان الجسمى والعقلى .. وبلغ من هذا الشغف
أننى انشغلت فترة عقب تخرجى بكتابة عدة أبحاث عن الأحداث
المنحرفين مدعومة بالاحصاءات والمقارنات ، وألقيت بعض المحاضرات
العامة حول هذا الموضوع .

فى أول يناير سنة ١٩٢٧ تسلمت عملى الجديد معاوناً للإدارة
بمركز منفلوط حيث قضيت أهم سنتين فى حياتى على الإطلاق .

أتيح لى خلالهما أن أعرف بلادى وأهلها وأنخالط الفلاحين عن قرب ، وأعيش فى الحقول بين نباتها وحقولها ، وأكل بصلها وسريسها ، بل لقله وجددت فيهما معادنى عندما أصبح الحمار يزاملنى طول النهار .

أهمية هاتين السنتين ترجع إلى أربعة أشياء :

أولها : استقلالى فى المعيشة ، أدخل وأخرج كما أشاء ، ومع ذلك فى كل مرة كنت أضع فيها المفتاح فى الباب إذا عدت متأخراً بالليل ، كنت أشعر بشيء من التهيّب كأنى فى بيتنا القديم وأمى تنتظر .

والثانى : اتصالى المباشر بالطبيعة المصرية والحيوان والنبات : كنت قبل ذلك لا أفرق بين القمح والشعير ، ولا أعرف عن الريف سوى منظر الحقول كما يبدو من نافذة القطار . ولعلك تلحظ فى القصص التى كتبها فى ذلك العهد مقلداً التحامى بالنبات والحيوان ..
حقل القطن ، الحماموس المربوط على البرسيم الخ ..

ثالثاً : اتصالى المباشر بالفلاحين والتعرف على طباعهم وعادتهم.

رابعاً : اتصالى المباشر أيضاً ، وبحرية ، بالجنس الآخر ، وقد عشت هناك تجربة حب خصبة عميقة ..

ومسجلت تلك المرحلة على مستويين :

المستوى الوصفى فى « خليها على الله » ، وجعلت محورها تأمل أسباب تلك الهوة التى تفصل بين الحكومة والفلاحين .. وقد دهشت أشد الدهشة وأنا أكتبها بعد مرور ثلاثين سنة على التجربة ، ودون أن تكون لدى أى مخطوطات أو مذكرات ، ومع ذلك فقد وجدتنى لا أزال أعيش بكل وجدانى فى منفلوط سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ :

أما المستوى الثانى فهو التصوير القصصى فى مجموعة « دماء وطن » ، وهى عبارة عن صعيديات تدور فى منفلوط ، ولها بقية فى مجموعة « أم العواجز » مثل قصتى « إزازة ريحة » و « حصير الجامع » .

قد يكون من المناسب أن أتوقف قليلا هنا لأروى قصتى مع القصة ، ومع الكتابة بشكل عام ..

بدأت أكتب فى سن مبكرة ، فى حوالى السادسة عشرة ..

ومعظم كتابات تلك المرحلة تجارب ساذجة لم أحن يجمعها أو الاحتفاظ بها :- ثم بدأت أكتب القصة القصيرة وأنا طالب بمدرسة الحقوق ، وبعد تخرجى .. وكنت متأثراً في كتابتها بالأدب الروسى أكثر من تأثرى بالأدبين الانجليزى والفرنسى :- فقد وجدت في الأدب الروسى أن كل شخص تقريباً مشغول بقضية كبرى ، هي قضية خلاص الروح ..

يخيل لى أن الأدب الصادق هو الأدب الذى ، وإن سجل وعبر وحلل وكتب بأسلوب واقعى ، لا يكتمى بذلك ، بل يرتفع إلى حده التبشير ، وهذا ما وجدته في الأدب الروسى فسحرتنى .

ويخيل لى - مرة أخرى - أننا لا نستطيع أن نفهم روسيا إلا إذا فهمنا أنها تؤمن - لا أخرى لماذا ؟ - بأن لها رسالة عالمية هي تخليص البشر كافة . وقد يكون في ذلك تفسير للدعوة العالمية للشيوعية ، كما قد يكون من الممتع حقاً مراقبة أثر التعايش السلمى الذى أصبحت تناجى به أخيراً على هذا الشعور الدائى المتغلغل فيها :

نشرت أوائل قصصى في صحيفة « الفجر » التى كانت تصدرها المدرسة الحليثة برئاسة أحمد خيرى سعيد ، ومن بينها قصة كتبها وأنا واقع تحت تأثير الكاتب الأمريكى إدجار آلن بو (١) ، وأخرى أبطالها من القبط والكلاّب اسمها « فلة - مشمش : لولو » .

(١) وهى قصة « السخرية أو الرجل ذو الوجه الاسود » .

وكانت « قهوة ديمتری » هى أول قصة نشرتها فى جريدة « السياسة » ، وقد خرجت منها بدرس فى انتفعت به طول حياتى ..
فقد وصفت فيها قهوة حقيقية موجودة فى مدينة « الحمودية » ،
وسجلت فيها الواقع كما هو ، وصورت العملة بطربوشه المائل
كما رأيته تماماً .. مجرد تصوير برىء لم أقصده من ورائه شيئاً ..
فإذا بالعملة يغضب على غضبا شديداً ويظننى أهراً به .

حرصت فيما بعد على أن أتجنب مثل هذه المطابقة ، بعد أن
فهمت أن الأدب الواقعى ليس هو التصوير الفعلى ، وأصبحت
الشخصيات التى أرسمها ليست منقولة عن فرد واحد ، بل عن مجموعة
من الأفراد .



وأعود إلى منفلوط لأسجل الانقلاب الخطير الثانى فى حياتى .
كنت راقداً بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهلك روحى وأن له
جسدى ، أقلب - ولا أقرأ - صحيفة يومية ، فإذا بنظرى يقع
على إعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعين الفائزين فيها
بوظائف أمناء المحفوظات فى القنصليات والمفوضيات .

إلقاء النظرة على الإعلان كان مجرد مصادفة .. ولكنها قلبت
حياتى رأساً على عقب ، فقلد تقالعت للمسابقة ، ونجحت وإن جاء
اسمى فى ذيل قائمة الفائزين ، فصلر الأمر بتعيينى أميناً لمحفوظات

القنصلية المصرية في جدة باعتباره أسوأ المتعصب الشاغرة وقتذاك .
ما أبلغ هذا الانقلاب في حياتي !

في جدة فيما بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ حدثت في حياتي
ثلاثة أحداث هامة :

رأيت المسلمين يأتون للحج من جميع أرجاء العالم فيكونون
لوحدة شاسعة كان لها أقوى الأثر في نفسي .. وهناك درست المذهب
الوهابي ومشكلات الحج والكورتينات .. وكتبت حولها عدة
مقالات في مجلة « الرابطة الشرقية » ..

والتقيت في جدة بالعقلية الغربية المنظمة .. ممثلة في بعض
رجال السلك الدبلوماسي . . من أهمهم « سان جون فيليبى »
المستشرق البريطاني الذي قام بلور هام لحساب مخبرات بلاده ،
واجتاز « الربع الخالي » وألف عنه كتابا ، وفان در مولن «

قنبصل هولندا في جدة ، وكان هو الآخر مستشرفا تخصص في وضع الخرائط عن الجزيرة العربية ..

وفي تلك الآونة كان النشاط الدبلوماسي قليلا ، فرحت أقضى وقت فراغي في مكتبة القنصلية حتى قرأتها عن آخرها .. وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتي لأول مرة ، وفتنت به أشد الافتتان ، فلم أعرف كاتباً أو مؤرخاً استطاع أن يصور روح الشعب المصري مثله ، ومنذ ذلك الحين وأنا شليد الاتصال الروحي بالجبرتي ، حتى لقد وقعت عدداً من مقالتي الأولى باسمه : « عبد الرحمن ابن حسن » .. ومن أهمها ست مقالات عن « الدعاية في المجتمع المصري » كان هو مصلري فيها ، ونشرتها في جريدة « البلاغ » ، وأرجو أن تضاف إلى أحد مجلدات هذه الطبعة (١) ..



نقلت من جلد إلى استامبول سنة ١٩٣٠ ، وهناك أتيج لي أن أرقب من قرب تلك التجربة الخطيرة التي قام بها مصطفى كمال حين حول دولة شرعية إسلامية إلى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة ، وقد قرأت عن مصطفى كمال كثيراً والتقيت به أكثر من مرة وربما أتيج لي أن أكتب عنه يوماً .

وفي استامبول ارتديت القبة لأول مرة ، وتعلمت أن للقبعات علماً وأصولاً ، وأن ما يصلح للنهار أو الرحلات

(١) انشيت بالفعل الى كتاب « فكرة غابتسامة » .

لا يصلح للمساء أو السهرة ، وأن لكل زى القبعة التى تتناسب معه واضطرت — بحكم الوظيفة — إلى شراء ستة أنواع مختلفة من القبعات بالإضافة إلى الطربوش .

وبذهابى إلى تركيا ، عدت إلى الأرض التى هاجر منها جدى وعثرت هناك على أقرباء لنا سكنت عندهم ، كما تعلمت التركية على كبر وأتقنتها . . فلم تكن اللغة التركية تستخدم فى بيتنا إلا للسباب فى لحظات الغضب . . كل ما تعلمته منها فى مصر لا يزيد على كلمات مثل : أدب سيس ، خر سيس ، سكر بره . .

وحاولت الاتصال بأدباء تركيا ، وأسعدنى الحظ بمقابلة الشاعر عبد الحق حامد — شكسبير تركيا — فى أخريات أيامه والشاعر يحيى كمال ، ولكنى لم أعر على الشاعر محمد حاكف وعلمت أنه فر من تركيا بعد الحركة الكمالية ، وأقام فى مصر زمنا .

وبعد أربع سنوات حافلة قضيتها فى تركيا نقلت إلى روما . فانتقلت من دكتاتورية أناتورك إلى فاشستية موسولبنى ، وكما تعلمت التركية تعلمت الإيطالية ، وأقبلت على الأدب الإيطالى أغترف منه . وقرأت مسرحية موسولبنى الوحيدة « مائة يوم » وكتابا آخر ألفه بعنوان « اخى أرناالدو » وعلمت أنه كان يكتب

خطبه وبياناته الرسمية بنفسه ، فكانت قطعا من الأدب الحر الملتب .

في تلك السنوات بدأ اتصالى المباشر بالحضارة الأوربية، وأخذت موقف التلميذ في الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح ، وإذا كانت الثقافة في روما وحركة التجديد والنشاط والابتكار لا تبلغ الذروة التي بلغتها في باريس ، فقد كانت تناسب شخصا مبتدئا مثلى ، معالمها واضحة ملموسة ، وضجتها محدودة وحياة الليل فيها لم تكن صاخبة كما يقال الآن ، فوجدت نفسى غارقا في عصر النهضة الذى نقل أوربا كلها من الظلام إلى النور . كل بضاعتى في الموسيقى والتصوير وبقية الفنون ، الففضل فيها أردته إلى السنوات الخمس التي قضيتها في روما .

ورغم ذلك فقد كنت أشعر دائما أن فى داخلى شيئا صلبا لا يلبس بسهولة في تيار حضارة الغرب ، وقد وضحت ذلك مرة في مقال قارنت فيه بين الأثر الذى تركه روما في القادمين إليها من الشمال والنازحين إليها من الجنوب ، ولاحظت أن أهل الشمال ينهبون بشمسها وحضارة عصر النهضة ، أما أنا فقد وصلتها وعندى قنر أكبر من اللازم من الشمس . . عندى حضارة .. إن لم تقن . . فهي تماثل حضارتها ، وعندى دين هو نظام متكامل فيه الغناء .

عشت في روما مع أطباع موسوليني وبهلوانيته ، وزرت ألمانيا
وسمعت هتلر ورأيت هـو وأعوانه وهم يؤججون الحركة النازية
بالشعارات الضخمة ومشية الأوزة .

وطوال تلك السنوات لم أنقطع عن التفكير في بلادى وأهلها
كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين
الذين يعيشون برزق يوم بيوم . وحين عدت إلى مصر سنة ١٩٣٩
شعرت بجميع الأحاسيس التى عبرت عنها في « قنديل أم هاشم » :
إن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصرى هـزا عنيفا
ويقول له :

« اصحح : . تحرك ، فقد تحرك الجهاد ! . . »

إنها قصة غربية سجدا كتبها في حجرة صغيرة كنت أستأجرها
في حى عابدين ، وعشت فيها لومة عاطفية مثيرة عبرت عنها
في أناشيد « بينى وبينك » التى تجدها في نهاية هذا الكتاب .

واسم إسماعيل . بطل « قنديل أم هاشم » أنخلته من اسم
صديق لى يدعى إسماعيل كامل ، كان آخر منصب شغله هو
سفير مصر فى الهند ، فقد كان يمثل فى نظرى محاولة المزاجية
بين الشرق والغرب .

إن اسمى لا يكاد يذكر إلا ويذكر معه « قنديل أم هاشم »
كأنى لم أكتب غيرها . . وكنت أحيانا أضيق بذلك ولكن كثيرين

حدثوني عنها واعترفوا بعمق تأثيرها في نفوسهم . . منهم أديب
يبنى قال لي لقد أحسست أنك تصفني حين أعود من القاهرة إلى
العين . . وقال لي بائع كتب قديمة : مش القصة اللي فيها واد بياكل
بنيتك في أوربا وأهله بياكلوا طعمية في مصر ! !

وحين أحاول البحث عن سبب قوة تأثير «قنديل أم هاشم»
لا أجد ما أقوله سوى أنها خرجت من قلبي مباشرة كالرصاصة
وربما لهذا السبب استقرت في قلوب القراء بنفس الطريقة . .



تقلبت في وظائف وزارة الخارجية ، وشغلت فترة وظيفة
مدير مكتب الوزير ، وكانت الشفرة السرية للوزارة في درج
مكتبي ، وعملت مع النحاس والنقراشي وإبراهيم دسوقي أباطة
 وإبراهيم عبد الهادي وأحمد محمد خشبة . .

وفي سنة ١٩٤٢ ووجدتني أشغل وظيفة مرموقة وقد بلغت
السابعة والثلاثين من عمري ومازلت أعزب ، فتزوجت كريمة
عبد اللطيف سعودى المحامى وعضو مجلس النواب عن الفيوم . .
ولم تدم سعادتي معها أكثر من ثلاثة أشهر ، أصيبت بعدها
بمرض خطير مؤلم سحب النور من عينيها ، وسرعان ما توفيت
بعد أن أنجبت لي وحيدتي « نهي » . وتركت في نفسي حسرة
لا تنقضى .

وأثناء عملي بديوان وزارة الخارجية توقفت صلتى بالحقق
البحاث الأستاذ محمود شاكر ، وقرأت معه عددا من أمهات كتب
الأدب العربي القديم وخواوين شعره . . ومنذ ذلك الحين وأنا
شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها ، وفي إعتقادي أنها لغة
عبقرية في قلوتها على الاختصار الشديد مع الإيجاء القوى . .

ولست أنجل من القول بأن منذ أمسكت بالقلم وأنا ممتلئ
ثورة على الأساليب الزخرفية ، متحمس أشد التحمس لاصطناع
أسلوب جديد أسميه الأسلوب العلمي الذي يهيم بالدقة والعمق
والصدق . . ولقد أرضى أن تغفل جميع قصصى وكتاباتى ولكنى
سأحزن أشد الحزن إذا لم يلتفت أحد إلى دعوتى للتجديد القوي
في محاضرتى « حاجتنا إلى أسلوب جديد » (١) وفي كثير من
كتاباتى الأخرى . . والأسلوب الذى أطلب به هو أسلوب علمى
يتميز بطلب الحتمية والدقة والوضوح ؛ لأن اللفظ عندى هو
وعاء الفكر ، ولا وضوح لفكر إلا بهما الأسلوب العلمى
الدقيق . .

ومفهوم الحتمية . . حتمية اللفظ - هو أن يختار كل لفظ
بدقة ليؤدى معنى معين بحيث لا يمكنك أن تحلله أو تضيف إليه
لفظا آخر أو تكتب لفظا بدلا من آخر . . ولذلك قد أكتب

ار (١) أدبر أن تراجع نصها فى كتابى « خطوات فى النقد » .

الجملة الواحدة ثلاثين أو أربعين مرة حتى أصل إلى اللفظ المناسب
الذى يتطلبه المعنى . .

وأهمية هذه الدعوة ترجع إلى أنها تعود الذهن على عدم
استعمال ألفاظ عائمة ، معانيها غير محددة ، وموضوعة في مكانها
بلا سبب واضح . . فمثل هذه الألفاظ لا تخل بالمعنى فقط ، بل
تشل قلعة الذهن على التفكير الناضج المحدد . . ولذلك أضيق
أشد الضيق باستهانة الكتاب باللفظ واستخدامهم كلمات بلا
معنى . .

ولكنى أشرت مع ذلك كله ألا يبدو على الكلام أثر من عرق
الكتاب وجهده ، بل لابد أن يخفى هذا كله حتى ليبلى الأسلوب
شديدا البساطة . . عليك إذا عرفت على العود ألا تسمع الناس
نخيلة الريشة ، وإذا كتبت ألا تسمع القارئ صرير القلم . .



ونقلت سنة ١٩٤٩ سكرتيرا أول للسفارة المصرية في باريس
إن روما بالنسبة لباريس أشبه بمسرح صغير بالقياس إلى محيط
هاثل بلاقرار . .

وكان أهم ما شعرت به في باريس ، وأعظم ما عشته فيها
هو ذلك الإحساس الغامر بطعم الحرية ، ولم أكن ذقتها بهذا
الشكل لا في القاهرة ولا في جدة ولا في تركيا ، ولا حتى في

روما : . في باريس كل إنسان حر . . والحكومة هناك لا تشعر بها إلا في شخص رجل المرور فقط لا غير . .

وعلى حرب الفن التقيت بزواجتي الثانية ، جان ميرى جيرو
لفتت لوحاتها وتماثيلها نظري ، ومن خلال المناقشات الفنية
نولد الود ، فالحب الذي نفيج على نار هادئة . . وتزوجنا سنة
١٩٥٤ ومن أجلها تركت السلك الدبلوماسي لأعمل في وزارة
التجارة والصناعة مديرا لمصلحة التجارة الداخلية :

وقبل ذلك عملت مستشارا لسفارتنا في أنقرة سنة ١٩٥٢
وبقيت فيها عامين رقيت بعدها وزيراً مفوضاً لمصر في ليبيا . .

وفي سنة ١٩٥٥ أنشئت مصلحة الفنون بوزارة الإرشاد
القومي ، فكانت أول وآخر مدير لها ، إذ ألغيت سنة ١٩٥٨
فنقلت مستشارا للدار الكتب ، حيث أتيح لي أن أفرغ لقراءاتي
وأبحاثي سبعة أشهر ، قدمت بعدها استقالتى من الحكومة :

وخلال السنوات الثلاث التي عملت فيها في مصلحة الفنون
مما صرت وشاركت ونفذت الخطوط العريضة للنهضة الفنية في
مصر ، ابتداء من إنشاء المعاهد الفنية ومسرح العرائس ، وأوركسترا
القاهرة السينمائي وكورال الأوبرا . . حتى إنشاء فرقة «باليل
ياعين ، « و « ندوة الفيلم المختار » التي تخرج فيها عدد غير قليل
من شباب عرجى السينما المصرية ونقادها . .

وفي إسرائيل سنة ١٩٦٢ عينت رئيسا لتحرير مجلة «المجلة» وظللت أتولى مسئوليتها حتى ديسمبر ١٩٧٠ وطول تلك السنوات حاولت أن أحافظ للمجلة على شعارها الذي اتخذته لنفسها منذ انشائها ، وهو « سجل الثقافة الرفيعة » ، فسعيت ما وسعني السعي لوصلها بالجامعات المصرية بنشر أبحاث أساتذتها النابهين كما حاولت ربطها قدر الامكان بمشاكل المجتمع الواقعية ، وما من بحث قيم بعيد عن النعمة الخطائية والدعائية والتبسيط إلا نشرته فيها ، بل وسعيت إليه وطلبته .

لم أتصور وظيفة رئيس التحرير على أن الدولة سلمته مجلة ليتبجح فيها على هواه ، ويطلع على القراء كل عدد بمقال له أو عنه ، بل إن واجبه يفرض عليه أن ينشر في المجلة أحسن ما يصله ومن بين ما يصله مقالته هو ، فإذا وجد فيما يصله ما هو أفضل منها لم ينشرها .

يبدو أن زحمة العيش وتشابك المصالح كانا يحولان بين العناصر

العلمية والأدبية الممتازة وبين التنبه إلى دورها في احتضان « المجلة » وتبني رسالتها . وما لم تشعر هذه العناصر بمستوايتها عن أمثال هذه المجلات الثقافية الحادة ، فسنظل ننصح في بئر غير فياضة .

ورغم ذلك فقد نجحت في تحويل مقر « المجلة » إلى ندوة متصلة لا تكاد تنفص ، يشارك فيها عدد كبير من شباب الأدباء والباحثين احتضنت « المجلة » إنتاجهم ، وكان لها شرف تقديم الكثيرين منهم إلى القراء لأول مرة .

هل يهملك أن تعلم بعد ذلك أني نلت جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٦٩ ، وأنى أشرف بعضوية المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ١٩ .



وأعود لوصل ما انقطع من الحديث عن كتاباتي . . لقد عابحت معظم فنون القول من قصة قصيرة ورواية وتقد وحراسة أدبية وسيرة أدبية ومقال أدبي ، وترجمت عددا من القصص والمسرحيات ولكن تظل القصة القصيرة هي هواي الأول ، لأن الحديث فيها عندي يقوم على تجارب ذاتية ، أو مشاهدة مباشرة ، وعنصر الخيال فيها قليل جدا ، دوره يكاد يكون قاصرا على ربط الأحداث ولا يتسرب إلى اللب أبدا . .



وأهم الأفكار التي ألححت عليها في قصصى هى :

أولا : الإغلاء من شأن الإرادة وجعلها أساسا لجميع الفضائل
فالعالم فى نظرى معركة كبيرة ، والسلاح الأول الذى يستخلمه
الإنسان فى خوضها هو الإرادة . . وما أكثر ما وصفت شخصية
رجل طيب ولكنه ضعيف ، فتكون النتيجة الحتمية أنه يمزور
جزرا . . وهذا واضح فى قصص مثل « نهاية الشيخ مصطفى »
(نشرت فى جريدة « السياسة » سنة ١٩٢٧) « وأم العواجز »
« والساءة تطير (١) » . .

ثانيا : الشغف بالدراسات والتحليلات النفسية وكانت لى
قراءات مستفيضة فى علم النفس وتراجم كبار الفنانين المصامين

(١) القصة الثانية فى هذا الكتاب .

بتمزقات روحية ونفسية وتأثرت بآراء فرويد وآلر . . ومن القصص التي يتضح فيها هذا الشغف « القراش الشاغر » و« سوسو » (مجموعة « عنتر وجوليت ») و« امرأة بغير زجاج » (مجموعة « أم العواجز ») وأشير فيها إلى أن كلا منا خزانة مغلقة لا يعرفها أحد ، وأن سر الحياة في المقدرة على الجذب ، وفيها تعبير غريب جدا في كلمات قليلة « وعجز يدى عن الامتلاك » ، إنه أصدق وصف لأشخاص تضيع منهم محافظتهم وأموالهم . . وزوجاتهم . لافتقارهم للقادرة الإيجابية على الجذب .

ثالثا : التنبيه لفارقات الحياة ، وأول هذه الفارقات جبروت الإنسان وضعفه في وقت واحد . ومن هنا تنشأ نغمة السخرية التي تسرى في كثير من قصصى .

رابعا : الاهتمام بوصف الحيوان ، ومن أمثلة ذلك قصة « فلة . مشمش . لولو » ، « عنتر وجوليت » ، ووصف الحمار في « نخلها على الله » ، والجمل والبقرة والماعز في « صح النوم » .

خامسا : في المرحلة الأولى انشغلت بالجنس ، فصورت الغريزة الجنسية كقوة واعية لها إرادتها المستقلة التي تغناها من خلال البشر غير مهتمة بقوانينهم أو أعرافهم . وفي قصة « احتجاج »

(مجموعة «أم العواجز») صورت سيطرة هذه الغريزة على بيت ، لذلك تمكنت أن أكثر فيها من المصطلحات الفسيولوجية : فيء الحامل ليلة الدخلة ، غسل القوط الصغيرة المبقعة ، رائحة العرق .

ومنذ اشتغلت بكتابة القصة القصيرة ، وأنا أحاول دائماً العثور على أشكال فنية جديدة . ولعل في قصة « البومطجي » (مجموعة « دماء وطين ») كنت أول من استخدم « الفلاش باك » أى البدء بالأحداث المتأخرة في القصة . لقد كتبت هذه القصة في استامبول ومازلت أذكر تلك الليلة التي كتبت فيها وصف ليل الصعيد ، وكيف شعرت برجفة شديدة ، وأنا أكتبه . . ولقد سرنى أن سمعت من بعض من قرعوا القصة أنهم أحسوا عند هذا الجزء بنفس الرجفة (١) . .

وفي قصة « السليخة تطير » (في هذا الكتاب) استخدمت الشكل الدائري ، فأنتهت القصة حيث بدأت .

وقد تكون رواية « صبح النوم » أحب أعمال القصة إلى نفسى لأنها تطبق صارم للمبدأ الذى أنادى به في ضرورة التزام

(١) « ليل في ظلمة المعى . . تلفح به الكون مرغما ، هبط على الفضاء حملا ثقلا ، احاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالكتف ، ولف القرى كالضمد . وانحدر - ولاحد لاتساعه - إلى الشقوق فاحتواها . ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التي يعلم أنها تستقبله وتتشربه ، فاحتلها يمتطي فيها . هو الآن في كل زوارة لكوم النحل يتسلل كاللص إلى قلب عباس ، على غفلة منه . . »

الدقة والعمق في أسلوب الكتابة . فليس فيها لفظ واحد لم يكن موضع جرس ووزن ، وفيها صفحات كاملة لا يتكرر فيها لفظ واحد . والمسألة ليست صنعة بقدر ما هي ثراء في المعاني والأحاسيس التي تتطلب ألفاظا لا تتكرر . ومن الأجزاء التي أعتقد أنه حالفتي التوفيق فيها منولوج التربي الذي ينتاجي الطبيعة ، فالإنسان لا يلتحم مع الطبيعة التحاما كاملا إلا عند الموت . والتربي في الرواية هو صاحب الحان الذي لا يستطيع أن يرى الناس إلا على حقيقتهم وهم مكرارى ، فلما أغلقوا له الحان لم يجد أمامه سوى الموتى ليرى فيهم الإنسان على حقيقته .

وإلى جوار القصة ، والمقال الأدبي . لا الصمغنى . أسهمت بقدر لا بأس به في النقد والدراسات الأدبية ، فكشفت تاريخ «فجر القصة المصرية» بأسلوب درامى يجمع بين الحقائق العلمية والتشويق القصصى ، واهتمت فيه بإبراز المفارقات التي تثير السخرية كقولى عن الدكتور محمد حسين هيكل حينما نشر روايته: « زينب » بتوقيع « مصرى فلاح » : إني لم أر رجلا مثله يتشكر حين يتشرف .

وبدل كتابي « خطوات في النقلة » على اتصالى منذ وقت مبكر بالحركة الأدبية في مصر رغم بعدى المادى عنها ، ففيه مقالات عن ديوان رامى « ومصرع كليوباترا » لشوقى « وأهل الكهف » لتوفيق الحكيم .

وأعرف أنى منهم بأنى ناقد تأثرى ، ولكنى فى مقالى عن « مصرع كليوباترا » مثلاً تحدثت عن أدق تفصيلات المسرحية فلم أترك حتى الشخصيات الثانوية . وفى مقالى عن « عودة الروح » لتوفيق الحكيم لعلى كنت أول كاتب مصرى يثير قضية الفن للفن والفن للحياة ، وقد أخذت على الرواية أن الذى يدافع عن مصر فيها رجل فرنسى !

وفى مقالى عن « المستحيل » لمصطفى محمود تحدثت عن كيفية نشوء الفكرة لدى الكاتب ، ثم كيف يخرجها على الورق ، كما قدمت تفسيراً اجتماعياً لشخصية كشكش بك يتضح منه مدى حبى لمصر وإشغافى عليها .

وأزعم أنى أسهمت فى تطوير الكتابة الفكاهية ، خير ما يمثلها كتابى « فكرة فابتسامة » فالفكاهة فيه تقوم على المفارقات العقلية ودقة الملاحظة لسلوك الناس ، ومن مقالاته القرية إلى قلبى « خروج ولم يعد » و « الحكاية وما فيها » و « سبعة فى قارب » الذى قدمت فيه تفسيراً لكل النوازع الفنية .

ومما أحتربه صداقاتى العلمية بالأدباء الشبان واحتشائى بكتاباتهم على اختلاف مذاهبها ، فالحنو على الجليل الصباغ ليس مسألة عاطفية فى نظرى ، فالقنان الصادق هو الذى يشعر أن المبدع أو الهيكل الذى يعيش فيه يجب أن يستمر وأن يسلمه جيل إلى

آخر . هناك بالطبع لذة الأب وهو يرى ابنه يتقدم ، ولكن اللذة الأساسية هي المتصلة بوجود الفن واستمراره ،

لعل ذلك يفسر كثرة المقدمات التي كتبها لقصص الأدباء الشبان ، وقد سمعت من يقول إنني جاملتهم ، والواقع أنني لم أكذب في أى مقدمة كتبها بل قلت الحقيقة بأسلوب رقيق ، ولكنى أغضب حينما يوصف نقلى بأنه « دبلوماسى » ، لأن هذا معناه أنه نقله متافق ، وأنا سعيد بتقديم عدد كبير من الأدباء الشبان وبصفة خاصة حملة سالم والشبان الستة الذين اشتركوا في إصدار مجموعة « عيش وملح » ولذلك حرصت على ضم هذه المقدمات إلى هذه الطبعة من مؤلفاتى (١).

وكانت لى مشاركة لأبأس بها فى الترجمة ، فترجمة مسرحيتي « الطائر الأزرق » لميتزلينك و « دكتور كنوك » لجول رومان وروايات : « أثنونى كروجر » لتوماس مان ، « ولعب الشطرنج » لستيفان زفايج ، « والبلطة » لميخائيل سادوفيانو ، وسيرة إسكندر دوماس التى كتبها إديث سوندرز بعنوان « الأب الضليل » بالإضافة إلى كتاب « القاهرة » للزموند ستوارت ، كما قمت بمراجعة ترجمة عدد من المسرحيات العالمية التى أصدرتها وزارة الثقافة .

(١) ستضاف الى كتاب « انشودة البساطة » .

أما الظاهرة الغربية التي أثار كثيرا في تحليلها وأنا أتأمل حياتي وإنتاجي ، فهي أني وإن كنت من أصل تركي قريب ، فلاني أحس بأنني شليد الاندماج بتربة مصر وأهلها ، وفي بعض الأحيان يرغبني هذا الشعور رجاء عنيقا .. ومعرفتي باللغة العامية المصرية وتعبيراتها تفوق ما حصلته منها مباشرة . قد يكون ذلك راجعا إلى الفطرة والحدس والإحساس غير الواعي ، ولعل هذا الحب هو الذي يميل بي إلى استخدام بعض الكلمات العامية في كتاباتي رغم أني من المهووسين بالفصحى .

وأثناء إقامتي الطويلة في أوروبا كان أكثر ما أحن إليه في مصر هو أحيائها الشعبية القديمة التي أسمع في أزقتها كلمات مثل « اجرنها » و « يادلعدى » ، وأعيش تلك الروح الشعبية الحلوة الصابرة التي حاولت تصويرها في « قنديل أم هاشم » ..
ياأخى ..

ها أنلنا قد فتحت لك قلبي ، وقدمت لك في مستهل هذه الطبعة الجديدة الكاملة من مؤلفاتي ما قلرني الله عليه من سيرتي وآرائي ، أيا كان حكمك عليه فسأتشفع عندك بمثل فرنسي معروف يقول :

« إن أجمل امرأة لا تستطيع أن تمنح إلا ما عندها - لا أكثر .. »

يحيى حتى
(مايو ١٩٧٤)

قوله في الحاشية

١

كان (١) جلدى الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبي مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت ، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب ، - وغريزة التقليد تغى عن الدفع - فيهوى معهم على عتبة الرخامية يرشقها بقبلاته ، وأقدام الداخلين والخارجين تكاد تصدم رأسه . وإذا شاهدوا فعلتهم أحده رجال الدين المتعاملين أشاح بوجهه ناقما على الزمن ، مستعيناً بالله من البدع والشرك والجهالة ، أما أغلبية

(١) كتبت « قديول أم هاشم » فيما بين عامى ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، ونشرت لأول مرة فى سلسلة « اقرا » ، العدد ١٨ ، يونيو ١٩٤٤ ، وأضيفت إليها فى الطبعة الحالية سيرة الكاتب الذاتية التى تنشر هنا لأول مرة .

الشعب فتبسم لسناجحة هؤلاء القرويين - ورائحة اللبن والطين
والخلبة تفوح من ثيابهم - وتفهم ما في قلوبهم من حرارة الشوق
والتيجيل ، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلونه :
والأعمال بالنيات . وهاجر جلدى - وهو شاب - إلى القاهرة
سعيًا للرزق . فلا عجب أن اختار لإقامته أقرب المساكن بالجامعة
المحب . وهكذا استقر بمنزل للأوقاف قديم ، يواجه ميضأة المسجد
الخلفية ، في الحارة التي كانت تسمى (حارة الميضأة) . « كانت »
لأن معول مصلحة التنظيم الهدام أتى عليها فيما أتى عليه من معالم
القاهرة . طاش المعول وسلمت للميلان روحه ، إنما يوفق في
المحو والإفناء حين تكون ضحاياه من حجارة وطوب ! ثم فتح
جلدى متجرًا للغلال في الميلان أيضا . وهكذا عاشت الأسرة في
ركاب « الست » وفي حياها : أعياد « الست » أعيادنا ، ومواسمها
مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا .

اتسع المتجر وبورك لجلدى فيه - وهذا من كرامات أم هاشم -
فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته في الكتاب حتى جذبته إلى
تجارته ليستعين به ، وأما ابنه الثاني فقد دخل الأزهر ، واضطرب
فيه سنوات وأخفق ، ثم عاد لبلدتنا ليكون فقيها ومأذونها . بقى
الابن الأصغر - عمى إسماعيل آخر العتود ، يهينه القدر واتساع
رزق أبيه لمستقبل أبهى وأعطر . لعله خشى في مبدأ الأمر ، عندما

أجبره أبوه على حفظ القرآن أن يدفع به إلى الأزهر ، لأنه يرى
صبية الميدان تلاحق الفتية المعممين بهذا الهتاف البنّاء :
— شد العمة شد ، تحت العمة قرد

ولكن الشيخ رجب سلمه ، بقلب مفعم بالآمال ، إلى المدارس
الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروي فسرعان
ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة وكبير
صبر . إن حرم التألق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك أكثر رجولة
وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدلّعين) أولاد الأفندية
المبتلين بالعجمة وعجز البيان ، فما لبث أن بذ الأقران وتلاّات
على سيئاته نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته .

أصبح ، وهو لم يزل صبيّاً ، لا ينادى إلا بـ (سى إسماعيل)
أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معاملة الرجال . له أطيّب ما فى
الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو أوراده
إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشّت الأم على
أطراف أصابعها ، حتى فاطمة النبوية — بنت عمه ، اليتيمة أبا
وأما — تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه فى جلستها
صامتة كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر معه كأن الدرس
درسها ، تتطلع إليه بعينها المريضتين المحمرق الأجفان ، وأصابعها

تعمل فى حركة متصلة لا تنقطع فى بعض أشغال (التريكو)
من ذا الذى يقول لإسماعيل : تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت
فيهما خلسة حياة غريبة وحساسة يقظة ، ولمس متعرف ؟ ألا تفهم
ألا تظن إلى أن دليل اقتراب عامة العمى فى السليم هو أن تبدأ يده
فى الإبصار ؟

— قومى نامى يا فاطمة .

— لسه بدري ما جاليش نوم .

بين حين وآخر تحيل دمة مرققة شخصه إلى شبح مبهم
فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها . الحكمة عندها تتمثل فى
كلامه إذا نطق .

يا لله ! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز ؟
وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم ؟ وكلمة كبر فى
نظرها انكسرت أمامه وتضاءلت . قد يخلق بصره بصفيرتها
فيتريث ويبتسم . هؤلاء الفتيات ! لويعلنن كم هى فارغة رؤوسهن !
إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأسرة
أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه فى الغد . كل حياتها
وحركاتها وقف على توفير راحته . جيل يفنى نفسه لبنشأ فرد واحد
من خريته . محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية .
الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسدة الحنرة ترقده على بيضها

مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هي
هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبار مستبد ، إرادته حديد ، له
فى كل عتق طوق ، وفى كل ساق قيد ؟ تعلق هذه الأسرة بولدها
تعلق مسلوب الحرية والإرادة ! فأين بربك جماله ؟ جواب هذا
السؤال عند قلبي . فما من مرة تمثلت فيها هذه الأيام البعيدة إلا
وجلته يخفق بذكرها ، ويبدو لى وجه جدى الشيخ رجب وحواليه
هالة من وضاعة ونور . أما جلدتى - الست عديلة ، بسنابقتها
وطبيتها ، فمن السخف أن يقال إنها من البشر ، وإلا فكيف إذا
تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو نلت من مثل تسليمها
وليعامها .



سمنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالأولوية فإذا أعلنت النتيجة دارت أكواب الشربات على الجيران ، بل ربما شاركهم المارة أيضا ، وزغردت (ما شالله) بائعة الطعمية والبصارة وفاز الأسطى حسن - الحلاق ودكتور الحى - بحلوانه المعلوم وأطلقت الست عديلة بخورها وقامت بوفاء نلرها لأم هاشم . فهذه الأرغفة تعد وتملأ بالفول النابت وتخرج بها أم محمد تحملها فى مقطف على رأسها : ما تهل فى الميدان حتى تختطف الأرغفة ، ويختفى المقطف وتطير ملاعها ، وترجع نخجلة تتعثر فى أذيالها غاضبة ضاحكة من جشع شعاذى السيدة وتصير حادثها فكاهة الأسرة بضعة أيام يتنكرون بها .

وكنذلك نشأ إسماعيل في حراسة الله ثم أم هاشم . حياته لا تخرج
عن الحى والميدان ، أقصى نزهته أن يخرج إلى المنزل ليسير بجانب
النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء وزالت حدة الشمس
وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات وأوهام ، أفاق
الميدان إلى نفسه وتخاص من الزوار والغرباء إذا أصححت السمع
وكنت نقى الضمير فطنت إلى تنفس نخبى عميق يحوب الميدان
لعله سيدى العتريس بواب الست — أليس اسمه من أسماء الخدم ؟
— لعله فى مقصورته ينفض يديه وثيابه من عمل النهار ، ويجاس
يتنفس الصعداء . فلو قبض لك أن تسمع هذا الشهيق والزفير
فانظر عندئذ إلى القبة . لآلاء من نور يطوف بها ، يضعف ويقوى
كومضات مصباح يلعبه الهواء . هذا هو قنديل أم هاشم المعلق
فوق المقام . هيات للجلدان أن تحجب أضواءه . يمتلىء الميدان
من جديد شيئاً فشيئاً . أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى ، ذابلة
الأعين ، يلبس كل منهم ما قلدر عليه ، أو إن شئت : فما وقعت
عليه يده من شيء فهو لابس . نداءات الباعة كلها نغم حزين .

— حراقى يا فول .

— حلى وع النبي صلى .

— لوبيه يافجل لوبيه .

— المسواك سنة عن رسول الله .

ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ؟ وما هذا العيب الذى
يُحتم على الصلوة جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من
الرضا والقناعة. ما أسهل ما ينسون إتناول أيد كثيرة قروشا وملايم
قليلة ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر وفصال
وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان . . وقد يكون الكيل مدلسا
والميزان مغشوشا ، كله بالبركة ، صفوف تستند إلى جدار الجامع
جالسة على الأرض ، وبعضهم يتوسد الرصيف . خليط من رجال
ونساء وأطفال ، لا تدرى من أين جاءوا ولا كيف سيخفون ،
ثم سقطت من شجرة الحياة فتعفت فى كفنها . هنا مدرسة
الشحاذين . حامل كيس اللقم يثقل الحمل ظهرة ينادى :

— لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب ، جاعان :

والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :

— ياللى تكسى الوليه يامسلم ، ربنا ما يفصح لك وليه !

صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان
تستهويان المطلات ، فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب
فى لحظة واحدة تلوب وتختنى ، فلا تدرى أطارى ، أم ابتلعها
الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لا يبيعك إلا إذا بدأته السلام
وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

يتقضى النهار فيودع كرش الطرشجى بقية براميله ، وترك
أقدام الخراط عملها اليومى وأدواتها ، لتعود بصاحبها إلى الدار .
لا يزال الترام هنا وحشاً مفترساً له فى كل يوم ضحية غريرة .
يتقدم المساء ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات
غضة وأخرى غليظة « حشاشى » . وإذا دلفت من الميدان إلى
ملخل شارع مراسينه (١) سمعت ضجيج السكارى فى خمار
أنسطاسى التى يلقبها أهل الحى بفكاهتهم خمار « آنست » . يخرج
منها سكير هائج يتطوحن ويتعرض للبارة :

— ورونى أجمعص فترة .

— جتلك لوه يابيه .

— ميبوه فى حاله ذا غلبان .

— ربنا يتوب عليه .

أشباح الميدان الخزينة المنهبة يتركها الآن نوع من البهجة والروح
ليس فى الدنيا هم . والمستفيل بيد الله تتقارب الوجوه بهجة ، ويتسمى
الوجيع شكايته . ويبلر الرجل أنتر نقوده فى الخوذة أو الكشيتنة
وليكن ما يكون : تقل أصوات اصطدام كصف المرازين ، وتختفى
عربات اليد ، وتطفأ الشوارع داخل المشات ، عندئذ تنهى بحولة
إسماعيل فى الميدان . هو خبير بكل ركن وشبر وحجر ،

(١) هو الشارع المنتهى من ميدان الديعة ذىسم إلى القلعة .

لا يفاجئته نداء بائع ، ولا يذنبهم عليه مكانه . تالفه الجموع فيلتف معها
كقطرة المطر يلقيها المحيط . صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد
في روحه أقل مجاوبة لا يتطلع ولا يمل . لا يعرف الرضا ولا الغضب
إنه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه . من يقول له إن
كل ما يسمعه ولا يفتن له من الأصوات . وكل ما تقع عليه
عينه ولا يراه من الأشباح ، لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل
إلى القلب ، والنفوذ إليه خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب في
أعمقه ، فتصبح في كل يوم قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظرته
بأية حياة . . . نظرة سليمة ، كل عملها أن تبصر .



اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفور ، وكأنه مرغم ، فهو
 فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس ويكاد
 يجن لوحدته بدأ يشعر بلثة غريبة في أن يندس بين المتردات
 على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . في هذا الزحام كان معنى
 اللباس عنده أنه فواصل بين الأجسام العارية ، يحس بها من صلعة
 هيئة أو احتكاك وامض . في وسط هذه الأجسام كان يشعر
 بلثة المستحم في تيار جار لا يبالى لقاء الماء . . روائح العرق

والعطر لا تكبره ، بل يتشممها بخيشوم الكلاب لا يخلو يوم
الزيارة من بعض المرسات - فسيلى العريس مأثور أن لا يمسك
أحدًا عن الساحة - يفقدن لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر ، عسى
الله أن يتوب عليهن ، ويمحو ما على الجبين من مقلر مسطور .
كان يراهن من قبل فلا يفطن إليهن ، أما الآن فهو يتبعهن وتعلق
نظرتيه بهن وتثريث واختص بانتباهه فتاة تأتي كل يوم زيارة .
سمراء جعدة الشعر ، وقيمة الشفتين . هذه هي نعيمة ، تمتاز
عن زميلاتنا بصمتها وقوامها الأهيف : كلهن يمشى مشية المتخاذل
المنحل غير مكترث . أما هي ، فكأنما تشير إلى غرض ، مالهكة
كيانها وروحها . فراحاها ممدودتان إلى جانبيها ، يواجرهك باطن
كوعها ولو دقت النظر لما وجدت من ميمس إلا فراعين
مكسورتين من أثر السقوط ، وإن كانت الثانية عندها من الخلاعة !
يتشمم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديرى - خادم المقام - وسطهن
كالديك بين الدجاج . يعرفهن واحدة واحدة ويسأل عن الغائبات ،
بأخذ من هذه شمعتها ، ويوسع لأخرى طريق صناموق النلور .
يتبدل وضاه فجأة ، فيزجرهن ويلفهن دفعا إلى الخارج . تأتي
إليه أيضا نسوة ورجال يسألونه شيئا من زيت قنديل أم هاشم ، لملاج
هيونهم أو عيون أعراسهم . يشفى بالزيت المبارك من كانت بصيرته
وضاعة بالإيمان . فلا بصر مع قلة البصيرة . ومن لم يشف فليس
لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسعها بعد أن تشدك برضاها .

لعله حجاب آثامه ، وأعله هن لم يظهر به من الرجى والنجاسة ،
فيصبر وينتظر ويتردد على المقام . فان كان الصبر أمامى مجاهدة
الدنيا ، فنه أيضا الوسيلة الوحيدة الآخرة .

فى هذا الزيت مورد رزق منع للشيخ حديدى ، ومع
ذلك لا تظهر عليه آثار النعمة : فجلباه القار هو هو ، وعمامته
الغبراء هى هى . وماذا يفعل يتقوده ! هل يكثر ما تحت بالطة ؟
يَمْ . ومادونه أنه يحرقها فى الحشيش ، بلليل سماله الذى لا ينقطع
ويكليل ما فى سبعة من ميل (للقنص) والتحكيت . والحقيقة أنه مزواج
لا يمر الاسم إلا ويبنى بيكر جديلة . حرفه إسماعيل من تردد على المقام
واحد أن يمر عليه فى أغلب الليالى به حلة النساء ليظهر
بحدسه . ومال الرجل للقى واختصه بمخاته ، هذا الحنان هو الذى
حمكه ذات لياة على الإفشاء إليه بسر لم يفض به إلى أحد غيره :

— تعرف يامى إسماعيل لياة الحضرة يحيى سيدنا الحسين والإمام
الشافعى . والإمام الليث : يحفون بالميلة فاطمة النبوية والسيدة
عائشة : والعمياء مسكينة . وفى كوكبة من الخيل ، ترفرف عليهم
أعلام خضر ، ويقوح من أركانهم المسك والورد بأنحنون أمكتهم
هن يمين السم وعن يسارها ، وتعتق محكمتهم وينظرون فى ظلمات
الناس ، لو شاءوا لرفعوا المظالم جميعها ولكن الألوان لم ين
بعد . فما من مظلوم إلا وهو ظالم أيضا ، فكيف الاقتصاص له ؟

في تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذي تراه فوق المقام ، يكاد لا يشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لآلاء يخطف الأبصار لأنني "ساعتها لا أطيق أن أرفع عيني إليه . زيته في تلك الليلة فيه سر الشفاء - فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكرين .

كان إسماعيل غائب الزمن ، يفكر في الفتاة السمراء التي قرم شفتيها . وانتبه إلى الشيخ درديري وهو يشير بإصبعه إلى القنديل : وسمنان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت . يصفو ضوءه الخافت على المقام ، كإشعاع وجه وسيم من أم تلقم رضيعها ثديها فينام في أحضانها . ومضات الذبالة خفقات قلبها حناناً ، أو وقفات تسبيحها همساً . يطفو فوق المقام كالخارص مبتعداً تبجيلاً . أما السلسلة فوهم وتعلة . . . كل نور يفيد اصطداماً بين ظلام يحتم وضوء يدافع ، إلا هذا القنديل . فإنه بضوءه بغير صراع ! لا شرق هنا ولا غرب ما هنا رهنا ولا ليل ، لا أمس ولا غد .

وانتفض إسماعيل ، لا يدري ما هذا الذي مس قلبه ! .

٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا . وخرج إسماعيل من الامتحان وقلبه واجف مفعم بالشكوك . وأعلنت النتيجة فإذا به يفوز ولكن في ذيل الناجحين .

لقد كان أملة ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ولم يستقر على قرار . ليس أمامه إلا أن يدخل مدرسة المعلمين إن شاء أو أن يدرس للبكالوريا من جديد ، ويضيع سنة من عمره ، وكلا الأمرين بغض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقل من ابنة قلقاً وحيرة

ولكم توقع بعض معارفه أن يكتفى بتعليم ابنه إلى الحد الذى يبلغه ويوظفه بالبكالوريا ، إن لم يكن للمساعدة ، فلتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حل . . لأحدى من الذى قال له :

— لماذا لاترسل ابنك إلى أوروبا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيهاً في الشهر ، غير ما يلزم لابنه في أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها في سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر ؟ ! إنه لو فعل لما بقي للأسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشفط . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعة ، والزمان قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

— توكلى على الله . . .

استيقظ من نومه وقد عقد عزمه . وفهمت الأم أن لامه رب من الفراق ، فرضيت صامته وإن لم ينقطع بكاؤها . إلى أين ؟ بلاد برة ! كلمة لها رنين وسحر تنسل ، كروح مبهمة لا يطمئن

لها ، إلى المنزل الذي لا تنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو الحق والعلم جميعا . وثوت هذه الروح في ركن صغير من الدار وغطت رأسها وتمطت . وثابتت منتصرة قريرة العين . بلاد برة ! ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لا مفر من قبوله لاعت ذلة ، بل للتروء بنفس السلاح . أما الأم ، فمنذ الآن تركها رعدة المحيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد برة في نهاية سلم عال ينتهي إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجح والاعيم . أما فاطمة النبوية قلبها واجف تسمع أن نساء أوربا يسرن شبه حاريات وكلهن بارعات في الفتنة والإغراء . فإذا سافر إسماعيل ، فلا تلتري كيف يعود إن عاد ! .

وجمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها واشترت تذكار السفر والملابس الثقيلة التي تقي من برد أوربا واقترب موعد السفر وحل الوداع .

واجتمعت الأسرة صامدة حزينة . قلوب شاققة ، وعيون دامعة . وأنشأ الأب يقول لابنه :

.. وصيبي إليك أن تعبرني في بلاد برة كما عشت هنا ، حريضا على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرة فلن تلتري إلى أين يقودك تساهلك ، ونحن يابني نريدك أن ترجع إلينا مفلحاً لتبيض

وجوهنا أمام الناس . أنا رجُل قد أوشكت على الكبر . وقد وضعت كل آمالنا فيك وإياك أن تغرك نساء أوربا ، فهن اسن لك وأنت لست هن .

ثم صمت الأب قليلا وعاد يقول :

— واعلم أن أمك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظرِكَ فاطمة النبوية فأنت أحق بها وهي أحق بك . هي بنت عمك وليس لها غيرك . وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن يصحب سفرك البركة واليمن .

لم يسعه إلا القبول : فوضع يده في يده أبيه ، وقرأ الفاتحة بينهما أم تبكي ، وفتاة حيرى بين الأُمى والفرح .

كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتى في يوم ، ولكنه لم يتوقعها في تلك الليلة : فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أنحوين وقلما نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد للـب . إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له : « احفظ عهدك ! » فيجيبه : « لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه أشياء غامضة ، لأنه حتى اليوم ما يزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب من امرأة . وإنه لكاذب — وإسماعيل لا يكذب — إذا أنكّر أنه جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعاً ، ولا سيما أخيراً ! إلى نساء أوربا ،

وخرج اسماعيل يودع بعض أصدقائه ، ثم انتهى الى الميدان . وقد اقترب الغروب ، . تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات الباعة التي ألفها ، وخیل إليه أن في الميدان حركة غير التي عهد . كأن القوم أصبحوا أسرع مشية . ما لهم لا يلوون على شيء ؟ أفليست الحياة إلا سباقاً ؟ كم ود لو وقف واحد من المتدفعين وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . في الميدان حركة النمل تتعارض وتتحاذى وتضرب في كل اتجاه . قادته قدامه الى المقام ، فوجده ساكناً على غير عادته . الشيخ درديرى واقف مطأطأء الرأس ، كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل حول المقام ، حتى إذا بجاء للسور الذى يفصل مكان النساء عن

فلم يبال ألقبه إلى شيخ راقف ورائد هي شافته السمره الصميت
مجبينها على السور . سمر إسماعيل في مكانه وسمعها تقول حافسة :

— يا أم هاشم : يا ستارة على الولايا ، لا تغضي عينيك ولا
تشيعي بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذها . إن الله طهرك
وصانك وأتلك الروضة : وإن قلبك لرؤوف : إذا لم يقصلك
المرضى والمهزومون والمخطمون ، فمن غيرك يقصدون ؟ إذا
نسينا فاذكرى أنته ! متى يمحي المقدر على ؟ أيرضيك أن جسدي
ليس مني ، فما أشعر بالألم وهو ينهش نهشاً : هاهي روحي على
حتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة . تريد أن تفيق : منذ غادرني رضا
الله وأنا كالنائم يركبه الكابوس ، يقبض في يده واحدة على الموت
والحياة ! رضىيت لحكمه وأسلمت نفسي ، وإن أضيع وأنت
هنا معنا . أفيطول الأمل ، أم رحمة الله قريب ؟ نلرت لك
يوم يتوب المولى على أن أزين مقامك الطاهر بالشموع . خمسين
شمعة ، يا أم هاشم يا أخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة
من تجارتها ، بل من قلبها : ومن ذا الذي يجزم بأن أم هاشم لم تسع
إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ؟
هم إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم
تنحرك قلماه . أراد أن يفضي لها بكل ما في نفسه ، إن لحظة
الانتزاع من الأسرة والوطن ، لمواجهة الغربة والوحدة والمجهول

أخبرني أمه صابته وتمسك به ، فإذا بهت لم أره دون وماتر السماء ؟ أولام ، هو ؟
 إلا أن صوتاً خفياً يريده أن ينطق في ذنبه ، ويتكلم ويرشاه إلى البحر
 ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا الصوت وتحتته ، ولعل
 الفتاة لم تره ولم تشعر به ، وهرب إسماعيل من حيرته إلى الشيخ درجيري
 وحديثه الثرثار ينزل بلسماً على فؤاده ، وقفته في صمت أمام المقام
 وتحت ضوء القنديل ، ويده معلقة بالسور تارة ، ماسحة على
 وجهه تارة أخرى ، هي آخر ما يذكره عن رحيله من القاهرة .
 فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام شمله من أنخص قديمه
 إلى رأسه ، كالتيار المتدفق العنيف ، يتأرجح فيه ملقى القياد ،
 مقلوب الوضع ، فقد خلاله الزمن ترتديه ، والمرثيات اعتدالها ،
 والأصوات صدها وفروقاها . وداع الأسرة ، وما أمره ! في
 الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار ثم الميناء وحرركته
 والباخرة المجهولة وصغيرها : إنني أتخيله صاعداً سلم الباخرة شاباً عليه وقار
 الشيوخ ، بطيء الحركة ، غريب النظرة ، أكرش ، ساذجاً ،
 كل ما فيه ينبيء أنه قروي مستوحش في المدينة . أقسم لي عبي
 إسماعيل فيما بعد أنه كان يحمل في أمتعته قبقاباً ، فقد سمع الشيخ
 رجب أن الموضوع في أوروبا متعلد لاعتقاد الناس لبس الأحذية في
 البيوت : كما وصف لي وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها
 وتكتها المحلاوى : وكان معه أيضاً سلة ملاءى بالكعك و (المنين)
 من عمل أمه وفاطمة النبوية
 وسافرت الباخرة ،

٦

ومرت سبع سنوات ، وعادت الباخرة :

من هذا الشاب الأنيق السمهري القامة ، المرفوع الرأس ،
المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزاً ؟ هو والله إسماعيل
بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب
العيون ، والذى شهدت لهجامعات إنجلترا بالتفوق النادر ، والبراعة
الفذة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :

— أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراطة قد تقمصت فيك
يامستر إسماعيل : إن بلادك فى حاجة إليك ، فهى بلد العميان .
رأى فيه حراية كأنها ملهمة ، وصفاء هو سليل فضج أجيال

طويلة ، ورشاقة أصابع هي وريثة الأبدى التي نحتت من الحجر الصلد دمي تكاد تحيا .

أقبل يا إسماعيل فلنا إليك شتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات موت كأنها نهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم التراخية ، لاتنفع في إرواء غلتنا ، أقبل إلينا قلوب العافية والغيث ، ونخذ مكانك في الأسرة ، فستراها كآلة وقفت بل صدمت لأن محرکها قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدري ؟ لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبلى من شاطئ الإسكندرية لا يرى شيئاً على الأفق ، ولكن نخياشيمه تتشم في النسيم رائحة لم يألفها من قبل . أول من لقيه من وطنه ، مخلوق الكون كله وطنه ، طائر أبيض منفرد يحوم حول السفينة ، طليق متعال نظيف ، وحيد ، لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول ، وما كان أسرها عند الفراق ؟ إنها تنهذى بدلال العودة ، فما لها وللركاب وما يشعرون . كنتم إسماعيل عن أهله موعد الباخرة حتى لا يكلف أباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية في حزمه أن يبرق إليهم موعد وصول قطاره للقاهرة . هذا هو الثمار المتسقط وهذا هو الشاطئ الأصفر يكاد يكون في مستوى الماء أنت يا مصر راحة ممدودة إلى البحر لاتفتر إلا بانيساطها . ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة ، ولا على شاطئك جبال تصد ، أنت دار كل

ما فيها يوحى بالأمان . . ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قله وخط الشيب لحيته ، مقوس الظهر ، أقمى كالقرد فى مقدم قاربه بصطاد ، جلبابه الأزرق ، أو الذى كان أزرق ، ممزق مرقع : وقعت نظرة إسماعيل على سيده مصرية وقفت بجواره ، فرآها مطلة على الصياد مغرورة عينها بالدموع وسمعها تتمم :

— مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد ، وهو لم ينتبه للباخرة كلها ! مثلها كثيرات داخلات بخارجات تكاد تصلم قاربه ، ولكن هيات لها أن تصدم عالمه المقل . عالم يجرى على وتيرة واحدة متكررة يوماً بعد يوم : هم إسماعيل أن ينادى هذا الشيخ وياق عليه السلام أو يلوح له بمنديل . كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق فى مثل تلك اللحظات التى تتأجج فيها العواطف وتصفو القلوب ! ورن جرس إيلانا بموت الباخرة ، فأصبحت جثتها فريسة بلحيش من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط ، وإخواننا المختلون ولو أنهم أخلط مطربشون ، وسحبالون وصيارفة وزوار . ثم اندلق الزحام والتدافع ، وتعالى النداءات ، وكثر العناق والتقبيل . وإسماعيل وسط التيار غير مغمور يلتقط بنهم كل ما يصل إليه : وعلى شفثيه ابتسامة حلوة مطمئنة . له أذن فارزة واعية ، ونظرة حية يقظة تريد أن ترى كل شيء ، وتفهم كل شيء . إذا دقت النظر إليه وجدته تكورات وجهه قد زالت ، وشده شدقه فى أخلودين : كانت شفثاه

مرتجيتين ، قلما تطبقان : أما الآن فقد ضمهما حزم ووئوق :
يحتاز الجمارك . وفي العربة يستمع لوقع صجلاتها بين الأسفلت
والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر : كم يبدو له
هنا اليوم متردياً في هوة من ماضٍ بعيد . بعيد كالحلم . . .
كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها
في إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب ؟ كان حقاً غفوى ، صاحباً
فسكر ، راقص القتيات وفسق . هذا المهبوط يكافئه صعود لا يقل
عنه جلة وطرافة . تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة ويتمتع بغروب
الشمس — كأن لم يكن في وطنه غروب لا يقل عنه جمالا — ويلتذ
بلسعة برد الشمال :

إن لم يكن له في هذه الفترة سوى (مارى) زميلته في الدراسة
لكنى بها في نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرقى الأسمر بلها
فأثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها ، كانت هى التى فضت
برأته العذراء ، أخرجته من الوخم والحمول إلى النشاط والوئوق ،
فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ، فى
الطبيعة ، بل فى الروح الإنسانية أيضاً .

قال لها يوماً :

— سأستريح عندما أضع لحياقي برنابجا أسير عليه :

فضحكت وأجابت :

— يا عزيزي إسماعيل : الحياة ليست برنانجاً ثابتاً ، بل مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » ، فتقول له : « قم نسر » .
 يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب : يتحدثها عن المستقبل ،
 فتحدثه عن حاضر اللحظة : كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه
 عن شيء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتربيته وأصولها ،
 هي منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين : أما هي ، فكانت تقول
 له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيراً بجانبه
 يحرس معطفه : يجب أن يكون مشجبك في نفسك » . إن أنخشي
 ما تخشاه هي : القيود . وأنخشي ما يخشاه هو : الحرية . كانت
 هبتها له في مبدأ الأمر محل حيرته ، فكانت حيرته محل سخريتها .
 كان يتجافى الناس ويقلد احتمالات ودهم ، ويهتم كيف يكون
 حكمهم عليه : وإذا لقي من تريجه المجاملة لا يجده بأساً في مجاملته ،
 وقلبه غير مشارك : التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج
 منه ظافراً أو خاسراً . أما هي ، فتهتم بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم
 جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل : ومع تساوى
 ودها للناس جميعاً ، كانت بتارة في إقصاء الضعيف ، والسخيف ،
 والمتعالم ، والردل ، والحزين ، والمتناق . فلما تخلصت من هذه
 الأوشاب ، أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبته .
 رآته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه

دني يلاحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول - وما أكثرهم في أوربا . يجلس صامتاً ينصت لشكواهم . وكان أكبر كرم الله أن يماشي منطقة منطقهم المريض . لحظته (ماري) وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبهون به . كل يطلبه لنفسه . فأقذبت وأيقظته بعنف :

- أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة شلت أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس ضرفي ينجحون عن يده تمتد إليهم ، فإذا وجعلوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مرفولة مكروهة ، لأنها غير عملية وغير متبعة ، وإذا جردت من النفع ، لم يبق إلا اتصاؤها بالضعف والهرمان ، إنما هذه العواطف قوتها في الكتمان لافي البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها . كان يشعر بكلامها كالمسكين يقطع من روابط حية يغنى منها ، إذ توصله بمن حوله . واستيقظ في يوم فلذا روحه خراب لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير والنفس البشرية لا تجده قوتها ، ومن ثم معادتها ، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها . أما الانلماج فضعف وقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذي وجد نفسه غريقاً وحيداً في خلائه ، فمرس وانقطع عن الدراسة ، واقرسه نوع

من القلب والحيرة : بل بدت في نظره أحياناً لحاح من الخوف
والذعر .

وكانت (ماري) هي التي أتتته : أخذته في رحلة إلى الريف
باسكتلندا ، يحوّلان بالنهار مشياً أو على العراجة بين الحقول
أو يصططدان السمك ، وبالليل تذيبه من مائدة الحب أشكالا
والزوايا : من حسن حظّه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التي
يقترح فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب في أوروبا ويخلص منها
بعض بناءية مستقرة ثابتة وثقة . إن الطرقات الاحتفاد في الدين
فإنها لم تلبثت إيماناً أثراً وأقوى بالعالم . لا يفكر في مجال المحنة
ونفسيها ، بل في بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعل أكبر دليل على
شغفه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (ماري) عليه . أصبح لا يجلس
بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله .
لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عندما رآها تبعد عنه وتنصرف إلى
زميل من جنسها ولونها : إنها ككل فنان يعمل عمله حين يتم : شئ
إسماعيل فقد كل سحره ، وأصبح كغيره من تعرفهم : فلتجرب
إذا صديقها الجديد . . . على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة
انجلترا دون أن يسمي إلى لقاءها لآخر مرة . دعاهما فلم ترفض
وجاءته . ولم يسأل نفسه : أعلى علم من صديقها الجديد أم على
غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى ، فهذه العلاقة ليست

عندها بذات بال ولا خطر. كانت ضمتها له نوعاً من المصافحة
وسلام الوداع ،

وهتفت به وهي تنصرف على دراجتها :

— آمل أن أراك في مصر يوماً من الأيام . ومن يدري ؟ فإلى
اللقاء إذن ، ولا أقول وداعاً ،

نساء العصر الحديث ! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب
ثابتة . شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر ممنوعته . لهن شهية مفتوحة
فلم التأسى والبكاء على ثمرة ، والشجرة مقعمة ؟



٧

والظاهرة العجيبة التي لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل
 أفاق من حبه (لمارى) فوجد نفسه فريسة حب جديد . الآن
 القلب لا يعيش خالياً ؟ أم أن (ماري) هي التي نهبت غافلا في
 قلبه فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً
 مبهماً ، هو كثرة الرمل انلججت في الرمال وانلجست بينها ، فلا
 تميز منها ، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى . أما الآن
 فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى
 وطنه ، في ذهنه مصر عروس الغابة التي لمستها ساحرة خبيثة بعصاها

فنامت (١) : عليها الخلى ، و (حواق) (٢) ليلة اللسطة .
 لا رعى الله عيناً لم ترجعها ، ولا أنفأ لا يشم عطرها ! متى تستيقظ ؟
 متى ؟ وكلما قوى حبه لمصر ، زاد ضجره من المصريين . ولكنهم
 أهله وعشيرته ، والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر
 والمرض والظلم الطويل المزم . إنه حقد في الموت مراراً ، وجس
 الخنوم ، واقترب فمه من فم المحموم . ترى هل ينكص الآن
 عن لمس هذه الكتلة البشرية التي لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟
 قد عاهد نفسه في حبه لمصر ألا يرى منكراً إلا دفعه : علمته
 (مارى) كيف يستقل بنفسه ، وهيات لهم بعد ذلك أن يجرعوه
 خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم . ليس عبثاً أن عاش في أوروبا
 وصلى معها للعلم ومنطقه : علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم
 فضال طويل ، ولكن شبابه هون عليه القتال ومتابعه . بل كان
 يتشوق إلى المعركة الأولى : وسرح ذهنه فإذا هو كاتب في الصحف
 أو خطيب في أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته :

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته ، لا يلدرى لماذا
 ضعف عن لقائهم بالخطوة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين
 الناس ، وريكة المتاع . إنه يود أن يلقى أعضاءه في دارهم ، وعلى

(١) إشارة إلى أسطورة أوربية شائعة . . . بقيتها أن تلك العروس لا يوقظها
 من سباتها السحري سوى مقدم أمير جميل يمشقها .
 (٢) زينة من الترتز توضع على طرحة العروس البيضاء .

نجوة من الغرباء . ولم يقدر رقع المفاجأة على أبيه وأمه النجوز .
ذكرهما فوجف قلبه : هل يستطيع أن يؤدي لهما بعض ماهر مدين
به ؟ إنه قادم مزود بنفس السلاح الذي أراده له أبوه ، وسيشق
لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف . وسيعرض عن
خليفة الحكومة ويفتح ميداناً في أرق أحياء القاهرة . وسيداهش
القاهريين أولاً ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من
خبرة . فإذا تدفق عليه المال أعق أباه الشيخ من العمل ، واشترى
له أرضاً في بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم إسماعيل : لقد
تذكر أنه لم يأت معه من أوروبا بهدية لأمرته ، وسرى عنه إذ قال
لنفسه :

— ماذا في أوروبا كلوا يصلح لأبي وأمي ؟

وقاطعة الثبوة ؟ ذكرها تثير في نفسه بعض الاضطراب لم
يزل مرتبطاً بوحده ، ووقا حاد حراً ، فلا علم له إذا احتل هذه
مسألة معقدة فليتركها إلى تشيل .

وأطل من النافذة فرأى أمامه ريفاً يشرى كأنما اكتسحته مصرفة
من الرمل ، فهو مهمل سافر وشرب . الباحة على المحطات في نياح
موزة ، تلوح كالخيرات المسطرة ، وتتمسب حرقاً :

ولا سارت التربة من الحطة ، ودخلت شارع الخليلي الضيق
الذي لا يتسع لمرور الآدم ، كان أبشع ما يتصوره أمون ماري :

قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه
الوجوم والأسى ، وزاد لهيب الثورة في قرارة نفسه ، وزاد التحفز .
ووقف أمام البيت ، وتناول مطرقته ، وتركها تسقط ؛
فاختلطت دقات قلبه بلغات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة نساء
القاهرة :

— مين ؟

— أنا إسماعيل ! افتحي يا فاطمه !



٨

يا اسماعيل : ما أقساك ! وما أجهل الشباب !

كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهي تضمه وتقبل وجهه ويلديه ، تشفق وتبكي . يا لله ! كم شابت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها ! إن الغائب في وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه فيجلههم كما تركهم منذ سنوات : صوت يهمس في قلبه :
— ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية :

وجاءه أبوه تفيض عليه ابتسامة هادئة : اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته : في عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من راحة

ضمير وضبور بالجميل التليل . ميعلم إسماعيل فيما بعد أن الأثر
كوته بنارها فانتكست أموره ، ومع ذلك لم يتأخر في يوم ما من
موعد إبداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه أويدهوه
إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة : بلهو إسماعيل في أسكتلندة مع
رفيقته ، يأكل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية
أو فجل :

لإسماعيل نظرة من طرف حينه تطوف في الدار ، فاذا هي
أضيق أوشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوؤهم من مصباح
البترول ؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبلو - رغم مر السنين وطول
الصعبة - كأنها مهاجرة في دار غربة ، ولماذا هم على البلاط
وآين البساط ؟

هذه أم محمد ترتبك كماداتها بين الأطباق والحلل وهي تزرد
فيزجرها ويقول لها :

— بس بلاش خوته ، ياوليه اعقل .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت ، فاذا أمامه فتاة في شرخ
الصبا : صغيرتاها ، وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها ،
وكل ما فيها وما عليها ، يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف . هل
هذه هي الفتاة التي سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده
وينكث عهده : وما لها معصوبة العينين ؟ فهي ترفع ذقنها لتستطيع

أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ مافر وساء حالها يوماً بعد
يوم .

وأعد العشاء وجلسوا ، ولعلمهم جلسوا من أجله حول مائدة
لهم من الخشب الأبيض ، لم يأكل عليها أحد . لم يأكلوا هم من
حلة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى إسماعيل
فيما بعد بأنه — حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة
العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد — لم يملك
نفسه عن التساؤل ! كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف يجد
راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش : وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته
ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهذه أمه تجذب نفسها حلياً
وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :
— تعالى يا فاطمة ، قبل أن تنامى ، أقطر لك فى عينيك :

ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة
على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة
فى عينيها سائلاً تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

— ما هذا يا أمى ؟

— هذا زيت قنديل أم هاشم : تعودت أن أقطر لها منه كل
مساء :

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديرى . إنه يذكرك ويتشوق إليك . هل تذكره ؟ أم تراك نسيته ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه — وهو طيب عيون — يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأبنة وسيلة تداوى بعض العيون الرمداء فى وطنه ؟ . . .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها ، وفحص عينها ، فوجد رمدا قد أثلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج المهدىء المسكن لتأثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى ،

فصرخ فى أمه بصوت يكا ديمزق حلقه :

— حرام عليك الأذية . حرام عليك : أنت مؤمنة تصلين فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمم ولا تبين :

ورأى إسماعيل شيخ أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض قصير وعلى رأسه طاقة تحمها وجهه مربد . هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة . ما هذا الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونظقت أمه أخيراً تستعيد بالله وتقول له :

— اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابني . ربنا يكملك بعقلك هذا
غير اللوا والأجزاء . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم ،
وإسماعيل كثور هائج لوحث له بغلالة حمراء .

— أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللي ح تجيب للبنث العمى
سترون كيف أداويها فتتال على يدى أنا الشفاء الذى لم تجده عنده
الست أم هاشم .

— يا ابني ده ناس كثير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجر
جربوه وربنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا بجاعلين تكالنا على
الله وعلى أم هاشم . ده سرها باتع ،
— أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . فى هذا البيت تعيش
قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان ، كأنها جميعاً استيقظت
وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام و رهبة . . .
لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة لآى جاءت لهم من وراء
البحار ،

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

— ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته في بلاد يره ؟ كل ما
كسبناه منك أن تعود إلينا ككافراً ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبي
القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد : فقد وعيه
وشعر بحلقه يحف ، وبصلره يشتعل ، وبرأسه يموج في
عالم غير هذا العالم : شب على قلميه واقفاً : لاشك أن في نظرته
ما يخيف ، فقد تضاعلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه .
هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة ، فتشبث بها
لحظة ثم تركها له . فأخذها من يدها بشدة وعنف ، وبمركة
سريعة طوح بها من النافذة :

. وكان صوت تحطمها في الطريق كدوى القنبلة الأولى في
المعركة :

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله
وتتنقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه : وجلد إشفاقاً وعطفاً
ولم يجد تساعاً وفهماً . ربما استشف في نظرهم بعض الرعب
غزايده هياجاً وانطلق إلى الباب . وفي طريقه وجلد عصا أبيه
فأخذها ثم هرب من الدار جرياً . لن ينكص هن أن يطعن الجهل
والخرافة في الصميم طعنة نجلاء — ولو فقد روحه :

أشرف على الميدان فإذا به يمجج كدأبه بخلق غفير ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات حية تعيش في عصر تحرك فيه الجهاد . هذه الجموع آثار خاوية مخطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ، ليس لها ما تفعله إلا أن تعثر بها أقدام السائر : ما هذا الصخب الحيواني ؟ وما هذا الأكل الوضع الذي تلهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا آثار استغراق في النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له وجه واحد بمعنى إنساني . هؤلاء المصريون : جنس سمج ثرثار أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان . يتلقى الصفعة

على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة
(مبرطشة) من الطين أسنت في الصحراء ، تطن عليها
أسراب من الذباب والبعوض ، ويغوص فيها إلى قوائمه قطع من
الجاموس نحيل . . . يزدحم الميدان ببائعي اللب والقول ، وحب
العزير ، ونبت الغفير ، والهريسة والسمبوسكة ، بلملم الواحدة .
في جنباته مقاه كثيرة على الرصيف يحوار الجدران ، - قوامها موقد
ولبريق وجوزة . أجساد لم تعرف الماء سنين . الصابون عندها
والعناء سواء . تمر أمامه فتاة مزججة الحواجب ، مكحلة العينين ،
شدت ملاعقها لتبرز عجيزتها وطرف ثوبها ، وتنجبت ببرقع
يكشف عن وجهها . وما معنى هذه القصة التي تضعها على أنفها ؟
أف ! ما أبشع رياء هذا المنظر وما أقبحه ! سرعان ما بدأ الناس
يتحركون بها كأنهم كلاب لم يروا في حياتهم أنثى ! هنا جمود
يقتل كل تقدم وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات المخدر ، وأحلام
النائم والشمس طالعة . . .

لو استطاع إسماعيل لأمسك بفراع كل واحد منهم وهزه هزة
عنيفة وهو يقول :

- استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك . ما هذا
الجدل في غير طائل ؟ والشقشقة والمهاترة في مفاسف ؟ تعيشون في
الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتنجون للقبور وتلذذون
بأموات !

وعثرت قلمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتفت حوله جموع
من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتقون منها رزقاً حلالاً .
كأنها من نعم الله عليهم ، أو مهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره
وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم
عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطيبة بلاهة ، وهذا
الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام ، وجرى إلى الجامع ودخله
واجتاز الصبح إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة
من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجة
واسودت سلسلته من (هبابه) . تفوح منه رائحة احتراق خانقة .
أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشعاع لإعلان
قائم للخرافة والجهل : يحوم في سقف المقام خفاش اقشعر له
بدنه : حول المقام أناس كالخشب المسننة وققوا مشلولين متشبثين
بالأسوار : فيهم رجل يستجلى صاحبة المقام شبتاً لم يفهمه إسماعيل
ولمّا وعى أنه يستعليها على خصم له ، ويسألها أن تجرب بيته
وتقيم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن في المقام فوجده الشيخ
حديري يناول رجلاً معصوب الرأس بمنديل نسائي زجاجة
صغيرة في حرص وتسر . كأنما هي بعض المهربات . لم يملك

إسماعيل نفسه . . . فقد وهبه ، وشعر بطنين أجراس علميدة
وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه
وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ :

— أنا . . . أنا . . . أنا . . . (١)

ثم لم يستطع أن يتم جملة . (ومن يدري ماذا كان يقول ؟)
هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغشى

(١) مكنت أكثر من أسبوع أبحث عن الكلام الذى ينبغي أن ينطق به
إسماعيل فى هذا الموقف ، وقد أحسست أنه يجب ألا يزيد عن لفظ واحد ،
إذ ليس من المقول أن ينطق بجملة طويلة وهو فى تلك الحال . وأردت أن
يكون هذا اللفظ معبرا عن الاثنين وعن الرغبة فى البوح . وفى الاستمطاف . .
وفى تأكيد الانتماء . . وبينما أنا حائر فى البحث عن الكلمة المناسبة إذ تذكرت
نصا كنت قرأته عن حياة الفيلسوف الألمانى « ليشة » وبقي منه فى ذهنى أنه
حين أصيب ببلوثة الجنون هبط من بيته الذى كان يقع فوق قمة جبل مرتفع وهو
يصرخ : « أنا . . أنا . . أنا » .

عندئذ أدركت أن هذه هى الكلمة التى كنت أبحث عنها ، لأنها تجسد كل
المعاني التى طلبتها ، خاصة وأن حرف النون فيه نشة الاثنين .
ولعل الذى قادنى الى تذكر هذا النص أن إسماعيل فى هذا الموقف كان هو
الآخر قريبا من الجنون .

وهكذا يتأكد اعتقادى بأن الذى يضل على النص الأدبى قدرا من قيمته هو
إشارات الغفلة الى أعمال أدبية أخرى ممتازة ، فكان للأدب كيانا متكاملًا اشتروك
فى تشييده كل من سبقونا ومن يلمصروننا من كبار الكتاب فى كل اللغات .
وأرجو أن ترجع فى ذلك الى مقال «لن يكتب الكاتب» فى كتابى «أنشودة
للبياسة» . (٥٠٥)

(١٩٧٨/٥/٢)

عليه . ضربه ، وحاسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم على وجهه ، ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أشرف على الموت تحت الأقدام لولا أن تعرف عليه الشيخ درديرى ، فأنقذه واستخلصه من غضب الناس وعنفهم وهو يقول :

— اتركوه ! إننى أعرفه . هذا سى إسماعيل ابن الشيخ رجب من محتنا . اتركوه . ألا ترون أنه (مريوح) .

واحتمله إلى الدار ، ووضعوه على الفراش ، واجتمعت الأسرة فى ليلة الفرح بعدوته تبكى صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذى سافرت فيه يا إسماعيل ؟ ليتك ظلت بيتنا ولم تفسدك أوربا فتفقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك ودينك .

صبكت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكنم ألمه وغيظه وسكب فاطمة دموعها مدرا رأ .

١٠

ومرت أيام كثيرة وإسماعيل لا يغادر الفراش . ركبته العناد فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً . ولما أفاق قليلاً بدأ يفكر : هل يعود إلى أوروبا ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعده أستاذ فرفضه بغاوة ولعلمهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك ، ويبنى لنفسه أسرة جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ؟ لماذا ترك إنجلترا بريقها الجميل ، وأمسياتها الهنية ، وقسوة شتائها الجبار ، وجاء لبلد يفرون فيه من بعض الرذاذ كأنما تحيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك وجوهاً صامته ونظرة ثابتة ،

١٠٧

تستر تحت المطر والثلوج ، تقاوم الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد في
بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا في الذل قروناً طويلة
فتلوا وقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر . إنه كالطير قد وقع
في فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه وقد
شد إلى هذه الدار التي لا يطيقها ، وربط إلى هذا المدان الذي
يكرمه ، فمها حاول فلن يستطيع فككا .

واستيقظ إسماعيل ذات صباح وهو يشعر بنشاط عجيب : في
مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة
وبلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً ، وعاد يحمل حقيبة ،
ملأى بالزجاجات والأربطة والمزاد ، وبدأ علاجه لفاطمة كما
يقتضيه طبه وعلمه . لقد عالج في أوروبا أكثر من مائة حالة مثلها
فلم يخنه التوفيق في واحدة : فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضاً ؟
وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لا يهمها مرضها بقدر ما
يهمها أن تكون بين يديه ، موضع عنايته ورققه . وتجنبه أبوه وأمه
ولم يعودا يعارضانه في شيء إشفاقاً على صحته :

في الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومريوم
وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها
ثم إذا بها تسوء فجأة وتلتب ، ويختلط سوادها بالبياض .

ضاحف إسماعيل عثايتة ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب
جفونها ومس ، وقطر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجلى طبه نفعا
إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا
ينقذها في علمه حيلة .

أخذها إلى زملائه في كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة
فوافقوه على طريقته في العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .

فقاوم وثابر . . . وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح وهي
تفتح عينيها ولا ترى . . . لقد انطلقاً آخر بصيص تنزي به .



هرب إسماعيل من الدار، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة أمامه ، وعماها دليل على عماه . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذى حدث ؟ لماذا أنفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ بعد عملاً ، ولا هو يقادر ولا راغب فى الالتجاء للحكومة لتعيينه فى إحدى القرى النائية ؛ باع كتبه وبعض الأدوات التى أحضرها معه من أوروبا ، وسكن فى غرفة ضيقة فى بنسيون مدام إفتاليا وهى سيالة يونانية بدنية أخذت تستغله منذ أول وقوعه فى يدها حتى لتكاد تضع فى كشف الحساب تحية الصباح ، أو تستقضيها بخطوتها إذا قامت وفتحت له الباب حاسبته مرة على قطعة سكر استترادها

في إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع تفتش جيبويه : أهذا بعض
القطائر والسجائر فأخذتها نهمة متلهفة ، وفي الصباح سألته أن
لا يطيّل السهر في غرفته حرصاً على الكهرباء . لا شك أن الإفرنج
في مصر من طينة أخرى غير التي رآها في أوروبا . كان يحبس
نفسه في غرفته ، فطردته هذه المائلة إلى الشوارع يجوبها من
الصباح إلى منتصف الليل . وفي كل ليلة يجلد نفسه — ولا يدري
كيف — وسط ميدان السيدة يجوب حول داره ، يتطلع إلى
نوافلها ، يريد أن يرى وجه فاطمة أو يسمع صوتها . فاطمة
ضحيته ، ومع ذلك لم تثر . . . لم تشك . . . لم تلمه . أسلمت
إليه نفسها عن رضى فأوردها التلف ، فما قالت للناجحة تريث...
وهكذا يظل واقفاً في الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن
شارد اللب ، تنسرب إلى أذنه النداءات القديمة . هي هي لم
تتغير ، ماذا ؟ لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه
في الميدان : مساكين ! كل من خدمهم من عليهم واستعجلهم
الجزء أضعافاً مضاعفة . لم يخدمهم أحد الله أو حباً فيهم ، ومع
ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الإخلاص وتشبثوا بأذياله
ورفضوا أن يروا ضعفه أو خيائته . هذا شعب شاخ فارتد إلى
طقولته . لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جليلة في خطوة
واحدة فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية .

تساءل إسماعيل : هل في أوروبا كلها ميدان كالسيدة زينب ؟

هناك أبنيه ضخمة جميلة، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى،
وقنال بالأظافر والأنياب، وطعن من الخلف واستغلال بكل الوسائل .
مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار يروحون بها
عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو . .

ولكن . لا . لا . لا . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله
وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوروبا وتقدمها ، وذل
الشرق وجهله ومرضه؟ لقد حكم التاريخ ولا مرد لحكمه، ولا سبيل
إلى أن ننكر أننا شجرة أينعت وأثمرت زماناً ثم ذوت .

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته ، ويقضى ليلته يفكر
كيف يهرب لأوروبا من جديد ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى
موقفه المعهود بميدان السيدة في مساء الليلة التالية .



١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتداءً يطيل وقفته في الميدان ويتدبر : في الجو ، في الهواء ، في المخلوقات ، في الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً . علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف .

يحدث إسماعيل نفسه : لماذا نخاب ؟ لقد عاد من أوروبا يجعبة كبيرة محشوة بالعلم ، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب . هي أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت في يده فجأة .

ودار بعينه في الميدان . وترثت نظرتة على الجموع فاحتملتها

وابتداً يتسم لبعض النكات والضحكات التي تصل إلى سمعه فتذكره هي والنداءات التي يسمها بأيام صباه . . . ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . (ابن البلد) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتي) . أطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ، بل شعب بربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ، ثمرة مصاحبة الزمان والنضج الطويل على ناره . وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل . هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة والسلاح مغمد . وهناك نشاط في قلق وحيرة ، وجلاد لا يزال على أشده والسلاح مسنون . ولم المقارنة ؟ إن الحب لا يقيس ولا يقارن وإذا دخلت المقارنة من الباب ، ولي الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر . . فانتبه لها إسماعيل ، ففي قلبه لذكرها حين غريب . ربي على إجلالها والإيمان بفضائلها ، ومترلتها بين الليالي ، لا يشعر في ليلة أخرى — حتى ولا ليالي العيد — بمثل ما يشعر به من خشوع وقنوع لله . هي في ذهنه غرة ييضاء وسط سواد الليالي . كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فيهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام .

وغاب لحظة عن أفكاره ، فإذا به يتجه على صوت شهيق

وزفير عميقين يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العترىس ولا ريب رفع
بصره . القبة فى غمرة من ضوء يتأرجح يطوف بها . انتفض
إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى غبت
عنى دهرأ ؟ مرحباً بك ! لقد زالت الغشاوة التى كانت ترين
على قلبى وعينى . وفهمت الآن ما كان خافياً على . لاعلم بلا
إيمان . إنما لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركك أنت وكرمك
وملك . ببركك أنت يأم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطأطئ الرأس فأبصره يرقص عليه
ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ درديرى يتناولها
واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعدة الشعر .
هى نعمة ! ! قد زال انطباق شفيتها وبدت لها أسنان . وإن تكلمت
فصفت من أسنان بيض كاللؤلؤ . تكفى النظرة إليها أن تنسى وجود
كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفى
بندرها بعد سبع سنوات . لم تقط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل
فى كرم الله .

أما هو - الشاب المتعلم ، الذكى المثقف - فقد تكبر وثار
وتهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره ، فإذا القنديل فى مكانه يضيء كالعين

المطمئنة التي رأت ، وأدركت ، واستقرت . خيل إليه أن القنديل .
وهو يضيء ، يومئ إليه ويتنسم .

وجاءه الشيخ درديري يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل
عليه إسماعيل يقول :

— هذه ليلة مباركة ياشيخ درديري ، أعطني شيئاً من زيت
القنديل .

— والله انت بمنحك كويس . . دى ليلة القدر ؟ وليلة الحضرة
كمان .

وخرج إسماعيل من الجامع ويده الزجاجية وهو يقول في نفسه
للميدان وأهله :

— تعالوا جميعاً إلى ! فيكم من آذاني ، ومن كذب على ،
ومن غشني ، ولكني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقد ارتكم
وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم مني وأنا منكم ، أنا ابن هذا الحى أنا
ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد ، كان
إعزازي لكم أقوى وأشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

- تعالى يا فاطمة ! لاتيأسي من الشفاء . لقد جئت بك بركة
أم هاشم ! ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك
فإذا هو حبيب . . .

وشد ضفیرتها واستمر يقول :

- وفوق ذلك ، سأعلمك كيف تأكلين وتشرین ،
وكيف تجلسین وتلبسین ، سأجعلك من بنی آدم .

وعاد من جدید إلى علمه وطبه يستنده الإيمان . لم یئأس عنلما
وجد الداء متشبهاً قديماً ، یجادله بعناد ولا یترشح . ثابر واستمر
ولاحت بارقة الأمل . فقاطمة تتقدم للشفاء علی یدیه يوماً بعد
يوم ، وإذا بها تكسب فی آخر العلاج ما تأخرته فی مبدئه ، فهي
تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فی عافية ، فتش فی ذهنه
وقلبه عن الدهشة التي كان ینشأها ، فلم یجدها .

١٣

وافتح إسماعيل عيادته في حي البقالة بجوار التلال ، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى العيون . الزيارة بقرش واحد لا يزيد . ليس من زبائنه متأنقون ومتأنقات ، بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات ، والغريب أن شهرته استقرت في القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها ، فاحتظت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج

كم من عملية شاقة نجحت على يديه ، بوسائل لو رآها طبيب أوروبا لشفق هجأ . استملك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة في الآلات والوسائل اعتمد على الله ، ثم على علمه ويديه ، فبارك الله في علمه ويديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات

١٢١

وشراء الأطيان ، وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل فاطمة ، وأنسلها خمسة بنين وست بنات . وكان في آخر أيامه ضخم الجثة ، أكرش ، أكلولا نهما ، كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهمة ، تتبعثر على أكامه وبنطلونه آثار رماد سجاثره التي لا ينفك يشعل جديدة من منية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على جبينه ، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى . وأصبح من يشاهده لا يدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست ضحكاته في حلقه ، اجتمعت في عينيه ، فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصلودين يكاد يقفز منها إليك شيطان لعب ، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ، وتسامح وإعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شيء :

— ليس كل ما في الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار وممتعة وبهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . .

إلى الآن، يذكره أهل حي السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة . مم ؟ لم يفض إلى أحد بشيء ، وذلك من فرط إعزازهم له . غير أنني فهمت من اللحظات والابتسامات أن عجبى ظل عمره يحب النساء ، كأن حبه لمن مظهر من تقانيه وحبه للناس جميعا .

رحمه الله . . .

السكفانة نظير

هذه (١) قصة خيالية، ولكنها ليست خرافة ، فوقائعها

محملة الحدوث ، وبطلها ليس مستحيلا وجوده ، ومن يدرى ؟
ربما كان حيا يرزق ! والواقع أنني أعرفه ، بل تربطني به صلة
أقوى وأشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . فنحن أولاد
حارة واحدة . أسارع وأقول إنها ... والحمد لله - حارة مسودة

(١) نشرت لأول مرة في جريدة « الرياضة الاسبوعية » ، العدد ١٥٠ ،
١٦/١٢/١٩٣٩ ، ص ٢٠ . وعنوان « السلحفاة تطير » يشير الى القصة المعروفة
في «كليلة ودمنة» حيث « اتفقت سلحفاة مع بطنين صديقين على حملها الى مكان
فيه ماء، فاخذت كل يطة بطرف عود وطلبتا من السلحفاة أن تتعلق بوسميه وحينئذ
قائلتين : « اياك اذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقى » . ثم اخذتاها فطارتا بها
فى الجو . فقال الناس : عجب ! سلحفاة يجر بطنين قد حملتاها - فلما سمعت
ذلك قالت : فقأ الله اعينكم ايها الناس ، فلما فتحت فاهها بالنطق وقمت على
الارض فماتت . »

فمثل هذه الحارات وحدها هي التي تعمل في تصفية الود بين
البحيران ما عمله الزجاج في تعتيق الشراب . على رأس الحارة
تقوم دار داود أفندى — بطل هذه القصة الخيالية — واجهة طويلة
بها الباب على الحارة ، وواجهة أخرى على الشارع ، مع أنها
شبر ونصف شبر عرضا ، إلا أنها تدل أن صاحب الدار أوجه
وأغنى من بقية السكان الذين لا يستطيعون رؤية الزفات والمواكب
والحناقات ، إلا بنى رقابهم ، وبخطر الوقوع في يد رجال
الإسعاف .

وداود أفندى لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية
وعاش ، لكان الوحيد بيننا الذى يسكن في ملكه . والمعروف
أن له أيضا استحقاقا في وقف عن أم أمه أو جد جده ، فلماذا
يتشبث بهذه الدار القديمة في هذه الحارة المسدودة لو كنت مكانه
لانتقلت إلى الحلمية أو المنيرة . كلنا نجيله لغناه ، و(نستعبطه)
لتزوله إلى مستوانا ، ولعلى كنت من بين سكان الحارة ، أكثرهم
ارتباطاً به رغم اختلافنا في السن والمهنة .

كنت إذا عدت للدارى من المطبعة في صفرة الشمس ،
ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره ، دعانى لمجالسته
وتشبث بى ، كأنه يجد لذة في أن تصافح يده الناعمة النظفة يداً
صلبة خشنة كيلى .

في هذه الجلسات تأتي لي أن أنصت أو أحثه على القول حتى
وقفت على تاريخ حياته ، وليس فيها - مع الأسف -
شيء من الأسرار التي تشرئب لها الأذن . هو من أولاد الذوات
الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين ، فكان من المعقول أن يفقدوا
طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل ، فأصبحوا كالحيوان البرمائي لا هو
هنا ولا هو هناك . فهم لذلك أسرع انقراضاً . هو بالنسبة
إلينا غني ، ولكنه في الواقع فقير . ومع ذلك فهو يعتر بأصل
لا يغيثه فيستريح ، ولا يسلكه في الفقراء فيريح . . . وماذا يفعل
وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز ؟ في كرمه
وجله ، في طبيته مع معارفه ، وازوراره ، بل نفوره ، من الغرباء .
تجافيه عن العالم الخارجي فيه تمسك بالماضي ، كأنه يعيش من وراء
سد الصين . له قصص شائقة عن تخوت الحمولى وعثمان . بين
الحين والحين يخرج علبة بيكار بونات الصودا ويسف منها قليلاً دواء
لمعدته : هو متأنق لا يأكل إلا أخف الطعام في أغلب أيامه . وهو ككل
أولاد الذوات الذين تربوا في آثار عز سالف ، وجدت فيه مع الكبرياء
والأنفة كثيراً من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة في معركاتها .

أذكر هذا لأنني كنت جالسا معه في إحدى الأمسيات ،
فرايت صبي شيخ الحارة قادما علينا ، مجداً في خطواته ، ساهم
النظرة كأنه في غيبوبة . هو زنجي وأغلب الظن أنه ولد في بؤظة
أو كان مهده قرعة . وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية . وعيونه

المتخبطة تحت جفونه المرتخية تبدو كالخرزة الزرقاء لا تفترق عن عيون
التيس في جمودها ومكرها . حتى إذا وقف أمامنا أخرج من
جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها لداود أفندى . ما هذه ؟
دارت نظرتي خلسة في لهف حول كتفه ، ووقعت على الورقة ،
فوجدت مكتوباً عليها (١٩ أحوال) .

— حضرتك مطلوب في القسم باكر .

— ليه ؟

لا جواب .

— عند مين ؟

لا جواب .

تحرك الأسود وسار . فعزرائيل لا يترث ليكي مع أهالي الميت
ثم ما كاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد
فأصول اللطمة أن تكون من قلمين ، ومال بوجهه — وجه الوابور —
على أذن داود أفندى :

— عمى يرجوك ويرجوك ألا تتأخر .

ثم كان فص ملح وذاب .

داود أفندى قلق ، حائر . بين حين وآخر يسألني :

— ياترى لماذا ؟ لم أذهب للقسم في حياتي ، وأشد ما أكره أن
أتخطى بابه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس ! أعوذ
بالله ! من الذى اشتكاني ؟ هل أتيت جرماً دون أن أعلم ؟

كنت غير ملق بالى إلى همه التافه . ولكنى انتهت وعجبت
من أن كثيراً من الناس الطيبين لا يسمون فى بعض الأحيان من
الوهم والشك فى براءة ماضيهم . ألا أن فى قلوبهم نازعاً خفياً إلى
الإجرام فتختلط فى أذهانهم الرغبة بالحقيقة ، أم هم يستيقظون فجأة
إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة ؟ !

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويحىء ولكنه
لا يستطيع أن يكون واثقاً كل الوثوق من أن ليس له فى الوقت
نفسه حياة أخرى مبهمه كالأحلام . لا يشعر بها كما لا يشعر بما
حواله من ركبه الدوار : حياة تتصل ، طى ضباب كثيف ، بحياة
أشد غموضاً لكائنات أخرى .

كنت أود أن أهدئ مخاوفه وأطمئنه ، لكنى خشيت أن
يعود سريعاً إلى الحديث الممل العادى الذى شبع منه ليلة بعد
ليلة ، وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعاً ، لأن الكلمة الطيبة
قلما تقبل المط . وأحسست برغبة فى البقاء على رأس الحارة
وقد طابت الجلسة وشملنا الغروب بسحره . فى كل مرة أنتبه
للحظة سقطة قرن الشمس ، أشعر أنها شبهة دوامة تحتضر ، كان
انفراجها النهار وانطباقها الليل . فأخذت - علم الله لا لغرض إلا إطالة
الجلسة الظرفية - أستثيره وأحرك مخاوفه . وتقلت الحديث من
البوليس وفضاظته إلى البطجية وأفاعيلهم . رئيسى فى المطبعة له شهر

فى الحبس ولا يدرى لماذا . وآخر اتهمه بلطجى بالتزوير ليفرض عليه ضريبة : ولهؤلاء البلطجية حيل لا يصل إلى قرارها الشيطان إن وصل : وربما سبقوا بالشكوى ليستولوا على أجر التصالح ... ومن يدرى ! ربما وجدوا فيك يادادود أفندى بطيبتك خير صيد فمدوا حولك حبالهم . ثم إننى لست مطمئناً إلى (١٩ أحوال) هذه ! ووجه صبي شيخ الحارة ينم عن شر كبير ، ولا بد أنه عالم بشيء لم يرد الإفضاء به إلينا . ولم أقم إلا بعد أن (استوى) داود أفندى ، وبعد أن استحلفنى أن أمر عليه فى الصباح لنذهب إلى القسم معاً .



لأدري هل تأخرت فى النوم عفواً أم أحبت أن أستريح من سهرة الأمس . استيقظت وقد ارتفعت الشمس ، فخرجت من الحارة مهرولاً كأننى هارب . ومع ذلك تشبث نظرى لحظة وأنا أجرى بياب بيت داود أفندى ، وخيل إلى أن مطرقته — وهى من نحاس على شكل يد مضمومة — تنبسط وتشير بسبابتها إلى ، إلا أن لمعانها ذكرنى سور مقام أم هاشم ، وتعلق المهزومين المرضى والمنكوبين بقضبانها . وانقبض قلبى خوفاً على صديقى داود أفندى . فمن نحس هذا الزمان ولؤمه أن يهان رجل طيب مسلم مثله، ويكون مثله عند دخول القسم كمثل حيوان أليف أكل عشب

يجد نفسه فجأة في غابة تعج بكل ذى ظفر وناب . مع ذلك – وهذا شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف اليدين – نسيته ونسيت. أوهامه وأنا منمخ مفقود وسط آلات المطبعة وهي تضج وتضطجك في حركات مفاجئة منتظمة كأنها نفضات مقعد محموم . . انتهت إلى ذكراه وأنا أمام داره في عودتي للحارة . رأيته في انتظاري جالسا على كرسيه متلفعا بعباءته . عندما قاربت حمدت الله أننى وجدته في حدة وغضب أنسياء خلقى لوعدى . ومع ذلك ما كاد يكلمنى حتى فهمت مع الأسف أن لعبى بالأمس في إثارة مخاوفه وتحريضه على رجال البوليس ، قد أدت إلى النتيجة التى كنت أريدها ولا أتوقعها . أستغفر الله، أقصد أتوقعها ولا أريدها . كانت الدعوة إلى القسم في شأن مخالفة هيئة : إلقاء ماء قدر في الطريق . ومع ذلك كان الجاويش من القظاظلة وقلة الأدب وداود أفندى من الكبرياء وقلة الصبر . بحيث وقعت الواقعة بينهما ثم لم أستطع أن أفهم من داود أفندى ما حصل بالضبط . بكل صعوبة وبعد تردد كبير ، اعترف أن الجاويش هزه هزة أوقعت طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس ، بينهم بعض من يعرفونه من أهالى الحى . حاولت أن أخفف حدته ، لكنه قاطعنى قائلا :

– لازم أطلب رد شرفى .

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيهما - لأمارات الغضب ،
 بل أضواء سعادة كبيرة . أردت أن أقوم بواجبي وأصرفه عن
 التفكير الكثير في أمر تافه ، لكنني عدلت سريعاً ، لأنني
 رأيت زورقه قد بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالى
 بأمواجه . وانقطع حديثه المبتذل . وأخذ يتكلم لأول مرة كلاماً
 لايسير على قضييين مرسومين . خفت عليه أن يعود إلى ركوده
 وابتذاله ، فهدتني الحيلة أن أقول له :

— رد شرفك و طالب بتعويض قرش واحد ! .

قلتها لأنني أعلم أن لهذه الحملة سحراً غريباً يخلب أذهان عامة
 الشعب والبعيدين عن المحاكم والقوانين . ولعل أكثر الحقائق بريقاً
 وخبلاً للأذهان ما كان أساسها التناقض . فكيف يثور من يغضب
 للإهانة ، ومع ذلك تنتهى ثورته بأن يثمن شرفه بقرش واحد ؟
 أى شرف هذا الذى يقدر بقرش ؟ أثرت هذه الحملة في داود أفندى ،
 وزاد عزماً وإصراراً على الحصول على هذا القرش الواحد .

قضيت معه ليلتين نتشاور في كيفية رفع الدعوى ، ولكن
 من من المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها وقد
 وقع اختيارنا في أول الأمر على أفضل المحامين ، ولكنه باتفاق
 الجميع ليس أعلمهم . أما أعلمهم فليس أقوامهم سلطاناً ونفوذاً لدى
 رجال الحكم . وأقوامهم سلطاناً ونفوذاً ليس أكثرهم أمانة . وأخيراً

اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا ، على الأقل نستطيع أن نتردد عليه كل يوم بلا مشقة . اخترناه ، لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطانه ، بل لبخته . نعم لبخته ، فكل من اتصل به يؤكد أن سرّاً باتعاً يسنده فلا يتولى قضية إلا كسبها . أغلب زبائنه من عامة الشعب الصالحين .

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفي أقرب ميعاد وأن الجاويش سيجازى أشد جزاء وفوق ذلك يعاقب إدارياً . وشرب داود أفندى من معسول كلامه ، فمتخلت أعصابه ، ودفع مقدم الأتعاب جنهين كالحلاوة .

وحددت الجلسة بعد ٤٠ يوماً .

وأخيراً ها هو القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندى . عود تلغراف ، لولاه ما شعر راكب القطار بحركته ولا بسرعه .



دفعته دفعاً وسط الزحام — فهو لحمة — إلى قاعة الجلسة . وأنا متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتلعثمه بين يدي القاضي ومواجهته للجاويش خصمه ثم عدوه . و « انحسرنّا » في مقعد وجلسنا ننتظر دورنا . كنت أتمنى ألا يكون داود أفندى شخصاً من دم ولحم ، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة الخيالية لأننى تأملت وأنا أراه ممتقع اللون مصفراً مرتجف اليدين . جلس

يخافني كله عيون وآذان وليس منه لسانه . أخذت أراقبه من طرف عيني ، فوجدته كالقشة في بحر ، ينعكس فيها أقل اضطراب لسطحه علوا وهبوطاً ، ومدناً وجزراً . اشتمله جو الجلسة من رأسه إلى أخمص قدميه . وشد عليه قبضته فلا يستطيع خلاصاً . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ . وأى سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور بين همس ووجوم ، ومحاورات القاضي والمحامين والنيابة تنقله إلى عالم غير عالمه . ثم فجأة وبدون سبب ظاهر ينجم على الجميع صمت عجيب . فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط القضاء . ثم من جديد يعود التيار إلى أشده ، وإذا به محمول محملى يكاد يفقد وعيه : القفص ، والجند ، نداء الحاجب . تلك التعابير القضائية التي تنحني لها الجباه لإجلالا ، وهي ليست إلا ألفاظاً !

لم يخضر المحامي عنا ، ونودي دواد أفندي ونظرت دعواه ، ثم أجلت في أقل من ملح البصر .

فدفعته مرة أخرى - كالم الثقيل - وسط الزحام خارج الجلسة . وما كاد يتخطى بابها حتى بلغ ريقه لأول مرة . وماذا كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف ؟ لم يثر في اضطرابه أقل شفقة ، بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التي نعيشها نحن المكثودين المتصبين .

عرقاً في زحمة الحياة . ولكني ما كدت أضع ذراعي في ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهة للمحكمة ، حتى رقى قلبي وملاه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل . وجلسنا وعلى جانبينا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسامرتهم . وكنت على صلة ببعضهم ، فدعوتهم للجلوس معنا وعرفهم بصاحبي . ولما افرقنا على رأس الحارة ، لم يقل لي داود أفندي كعادته : « تنقابل هنا » بل قال :

— قابلي بكرة على القهوة إياها .

دفع داود أفندي جنينين آخرين للمحامي ليضمن حضوره في الجلسة القادمة ، كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه .

وكنت قد غبت عنه بضعة أيام . ولعلها أسابيع . ولما عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطاً بأصدقائه ! من وكلاء المحامين وكلهم يحترس القهوة والشاي : ويلتصق النارجيلة على حسابه . وإذا به يشترك معهم في أحاديث مهنتهم ، وتجري على لسانه نفس الألفاظ القضائية التي يتمشقون بها ، بل ويدخل معهم إلى الجلسة في بعض الأحيان . لما رأيته في هذه الحال أردت أن أساعده وأوجد له ما يشغله ، فسعيت وعرفته بقريب لي معدم ، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل ذو بطش وسلطان . أردت أن أخدم الاثنين ، ويكفيني ثواب المسعى . اتفق معي

داود أفندي على أن يقوم هو بالاتفاق على الدعوى في نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما . وأسر إلى داود أفندي أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى .

بعد يومين رأته يحمل « دوسها » في يده سائراً مجداً إلى المحكمة . .



حدث بعد ذلك أنني نسيت جاري العزيز داود أفندي نسانا تاما ، لأنني كنت قد نجحت في تحقيق أمنية طالما كنت صلبى ، وللازمتني الليالى تنغص على نومى وأكلى وشربى . كنت أريد أن أتخلص من وسط عيال اليومية وألتحق بطبقة الأفندية أصحاب المرتبات الشهرية . فكم أبليت نعل ، وأخفيت قلمي ، وكم أرقق ماء وجهى وجف لسانى - ويغنى قولى هذا عن التفاصيل - حتى نلت رغبى ، وعينت حاجباً أمام باب قلم فى وزارة . تخلصت من ماضى الكريه كله ، وتخلصت أيضاً من الحارة المسلوذة اللعينة ، وسكنت المنيرة .

مضى على فى وظيفتى زمن ، وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار ، وفى يدى قرطاس بلح آكل منه ، مررت على مطعم ، ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود أفندي جالساً أمام طبق فول مدمس . داود أفندي « بيجلية » وجاكته ، تجمع أصابعه بلقمة

حبّات الفول وتعجنها في الزيت ، ثم تحملها كتلة واحدة -
كالكرة - إلى فمه ، ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل .
أشهد الله أن قلبي انشرح ، وأننى سررت كل السرور لحسن
صحته ولتخلصه من أمراض معدته . وأشهد الله أننى شعرت
بموجة شوق قوية تملؤنى ، فجريت نحوه ومددت له يدي مشتاقا
يكاد الفرح يقفز من كيانى قفزاً .

— داود أفندى ؟ سلامات ، ازيك !

ولكنه ترك يدي ولم يأخذها ، ولما رفع إلى عينيه لم تستقر
نظراته على وجهي حتى رأيتها تمتلئ بأقصى ما تستطيع العين أن
تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض . وإذا به يصرخ في وجهي
ويشيع عنى :

— روح الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتي !

تملكتنى الحيرة فسمرت في مكاني . أى جرم أتيت ؟
وماذا فعلت ؟ لا أذكر إلا أننى كنت دائماً تحت أمره كأننى
عكازه . كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه ، وأترك عملي
لأكون في خدمته ، ولا أذكر أننى خنته أو آذيته أو أضللته .

ولكن هذه المحاولات لم تفلح في سند سياج كنت أقيمه
بكل جهدى طول الوقت ، لتحصن وراءه نفسى ، ولو لتعيش
في دنيا أوهامها في حمى من شك خفى بدأ يلب في قلبي . . .

وإذا بالسبايح يُرغمني وينهد ، وتبرز لي من ورائه تحملني
في وجهي كهيون البوم ، تهمة بشعة كالعدم ، قاسية كالقدر المترصد
زاسخة كالأزل .

(كن طيباً ما أمكنتك ، حذراً ما استطعت ، فلن تكون بذلك
إلا أذى ، ولا قدمك إلا سوءاً) . شعرت في جسمي ببرودة
الموت ، وعشت زمناً أرتئي لحالي وأقول : يالى من مسكين !
ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة ، وأعدت نفسي للحياة -
والحياة تقوى على أقوى الآلام ! - بقولي لنفسي :

- هون عليك . . . أين فيجيتك ؟ هذه قصة خيالية ، ولكنها
ليست خرافة . . .

وهكلا من أول وجديد (١) .

(١) كتبت هذه القصة في مرحلة مبكرة ، وكنت وقتها مشغولاً بالبحث عن
التجديد في الشكل وليس في المضمون فقط ، ويخيل لي أني وفقت في هذه
القصة إلى علاج الشكل الدائري ، بمعنى أن تنتهي القصة حيث بدأت . وفي هذه
القصة حيلة فنية أخرى حيث يتوارى البطل الحقيقي وراء بطل ظاهري ، فبطل
القصة الحقيقي هو الراوي عامل المطبعة وليس داود أفندي .

وأهمية هذا البطل في نظري أنه مثل في وقت مبكر بعض مشكلات الطبعة
العامة ودراسة لنفسيتهم وتوقعهم للاحتاق بالطبعة البرجوازية .

« د. ح. »

(١٩٧٤)

كَمَالَةُ أَيَّامٍ

هاهو (١) قد تزوج، وها هو يقبل زوجته ، في كل قبلة
يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرتة شجرة أسرة
ليست — وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء . وجاء يومه المرجو ،
وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورأى حته . وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة الله . . .

فسماها نعمات .

لم يلرك أن في أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء
جحود وتدخل في الملكوت . . . وعاد إلى سؤال ربه في صلاته
وأطال تضرعه في ركوعه وسجوده .

(١) نشرت في مجلة « الثقافة » ، العدد ١٩٢ ، ١٩٤٢/١/١ ، ص ١٢ .

وجاء يومه المزقّب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة
لقة تتلوى كالخشرة ، وقالت :

— بنت . بنت . هذه عطية من الله :

فسمى الثانية عطيات :

« نعمات » ، « وعطيات » . لم تكن أسماء بقدر ما هي تلميح
بأن الرضا عن اضطرار ، وأن خضوع اليوم مرتبط بالرجاء في تحقيق
الوعد غداً . حرك الأب الأبرّ كل ما في قلبه من شغل الإيمان
وتوجه إلى الله بكل ما قلدر عليه من خشوع ، وكرر ابتهاله
وتذله ، فاستجيب في يوم دعاؤه . واستقر في بطن الأم سر
الصبي الموعود :

حينئذ مات أبي ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته : أوفى جهده على
الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده . وكان ثمن انطلاق السهم تمزق
الوتر المشدود . إن سعادة الأفراد لا وزن لها في تسلسل الأجيال .
وهكذا ولدت يتيما ، ومع ذلك لست بغريب عن أبي ،
كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عيني على صورته الفوتوغرافية
الشاحبة على الجدار ، أراه يبتسم لي ، ويكاد يناديني .

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب ، حتى ماتت أمي ،
كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن أطمأنت على . وسرت وحيداً

منفرداً خلف النعش . أما شقيقتاي ، نعمات وعطيات ، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الحدود وهما متدليتان من التوافذ. رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجهيهما ونهودهما من أطراف العيون . في تلك اللحظة استفتت ، وأدركت أنني أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فثانان جميلتان ، نعم جميلتان ، وإن لم تصح شهادتي . ليس لهما غيري . قومت من ظهري المنحني ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء ، والتوصية بالصبر والرجولة .



ثم مرت الأيام ، ودرج النسيان بأذياله على الماضي وأهله ، وإذا بي في صحبة شقيقتي من أهنأ الناس . ثلاثتنا في مستقبل الشباب وروثقه ، في مرجه ونزقه ، في جريه وقفزه ، في عطره ونضرتة . تساوى طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تأخذ بخناق طفولة هاجمة . من حسن الحظ أننا لم نكن في سعة تكفي للإنفاق على ثلاثتنا ، فقدم الصبي وحجزت البنتان في الدار . وكذلك نجاهما الله من الجامعة بأدائها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل غير ملتو يفضل في الفضاء ، وطبع غير متكلف . كل منهما نمت أنثى جسماً وعقلاً ، لا يعبر حديثنا نقاش أو جدال . صحبة لم يترك لي صفاءها مطمئناً . فمن مثلي من الرجال تحوطه فثانان — لافتاة واحدة — بكل ما وسعهما

من عناية وإخلاص ؟ لاتقل ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن
 زملائى المتزوجين ، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والمهم
 والضيق الذى أنبئته على وجوههم كل صباح فى المكتب . . .
 كانت نفسى قاتعة وجسمى سعيد . نعيش متلاصقين كصغار
 القطط ومن عى . حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم
 الحنون فلبسناه . هى أكثرنا رزانة واتزاناً . فى يدها مصروف البيت
 وتدير خزينته . وبقيت عطيات « دلو عتنا الشعنونة » التى من
 أجلها نحصر - فى خفية منها - على تذكر أقل رغبة لها ترد
 عرضاً فى سياق حديثها ، وننتظر إلى أن تحين الفرصة فنجد
 أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها ، وفى التحايل على
 كتمان أمرها ، إلى أن تعثر عليها فى تمام مناسبتها ، فنضحك معها
 لدهشتها ، ونشاركها الفرح بهديتنا . . وفى بعض الأحيان أضغ
 رأسى على ركية عطيات ، فتعبت بأصابعها الطويلة فى شعرى
 كأم القرد تفل رأسه وتناغيه . . يمانبنا نعمات تخمرنا بإبتساماتها
 الحلوة ، وهى تحيط لى بعض ملابسى الداخلية . لو تركنا لأنفسنا
 لعشنا سعداء فى هناء يكمل بعضنا بعضاً . ولكن كيف يتأتى ذلك ،
 وفى الناس لإخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير ، وتطوع
 لعمل الخير والتحريض عليه !!

بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أخنك ؟
 لقد آن الأوان ! » . ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر

لهما على زوج صالح ، وأنت قابع في داركم القديمة المختبئة بلرب
الحجر من وراء حارة التمساح لانتزور ولا تزار . . . أم تراك
معتمداً على الخاطبة ومقابلها ؟ » .

أخذت وأنا خائف أنطلع إلى عيون شقيقتي على غفلة منهما
وأسأل نفسي :

— هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟ .

خيل إلى في بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة
وتشرد في الفضاء ، وأن تحت وشي هذه النظرات الجميلة ينجنيء
قزم من الحزن والحرمان : له عين اليوم ، وأسنان الفأر ، وعناد الثور
ونزق الجلدى . . أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوخ فلن تخفى على
بعد الآن ! .

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتي
فاستبانت لي الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً عارماً قبيحاً عارياً
قوى العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولا بد من التضحية وتحمل
الوحدة والصبر على مرارة التسليم والانسحاب . . رسمت لنفسى
برنامجاً ، وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد ، حتى شقيقتي .
لن أبدأ إلى الأقارب ، فهم — كما يقول المثل — عقارب ، ولا إلى الخاطبة ،
فهي سمسار بين عجزة . أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا؟
إذا فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفي موطنه ، ولو أدى الأمر

إلى اصطياذه احتيالا . ساعد الشبكة الماكرة بنفسى ، وألقيا فى طريقه بيلى . هذا صيد حلال . وأى شىء أعظم ثوابا عند الله من تدير زواج صالح لأعز الناس على ؟

بعث بعض الحلى، وسحبت كل نقودى المودعه بصندوق التوفير ، وأجرت شقة كالحق - ولكنها غالية على ! - فى جاردن سبى ، واشترت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا . عن إذنك يادرب الحجر ! لقد ألغى الرق فاعتقينا لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات ، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف ، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعاً ، وداعاً . فنحن فى دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق . أنتظرين أن أريك بدمعة؟ من تلفت إلى الماضى لم تكفه دموع النساء ! أتسأليننا البكاء ؟ بل أسألينا النسيان ، والنسيان السريع .

ولما دخلت العمارة ، قام لنا بوابها : بربرى له وقار القديسين وهيبة الأباطرة ولما دلفت إلى المصعد بعد سلام قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول : « هنا الأتريه ، وهنا الأوفيس » - اطمأن قلبى ، وقلت : قد أحكمت الشبكة ، فلنتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .

عشنا غرباء زمنا ، ثم بدأنا نألف الحى وأصواته ، ووجوه
سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح فلذا بي أواجه
صاحب الشقة المقابلة خارجاً بلوره . واحتوانا المصعد معاً .
لأدرى لماذا اطمأن قلبي إليه . ابتسامة منى - وكنت أنا البادىء ،
وابتسامة منه ، وصلت الحديث بيننا . هو موظف كبير ، على
المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو ابن أخ ،
أو ابن أخت ، أو صديق أو معرفة ، وقلت : لعلهم إذا رأوا
أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا بالخطبة .
دعوته لزيارتنا ، فإذا به - لشدة دهشتي - يقبل بسهولة . جاء
وزوجته ، سيدة نصف ، حنت على أختي حنو الأم الرعوم .
دعنا لشرب الشاي عندهم وقالت وهى تنصرف :

— عسى أن تكون ابنتى سنية قد عادت من الإسكندرية
فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمى على وجهى . كنت أنتظر أسماء
رجال لانساء . وقلت فى نفسى : « فلتكن زيارتنا الأولى هى
الأخيرة ، فلم أجيء هنا من أجل التزاور مع أسرة ليس لديها رجال »
وذهبت فى الموعد المضروب ، وأنا متحرج ضيق الصدر . .
وجاءت سنية أيها الناس ! لا تبخلوا على بكرمكم وطيبتكم .

أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلى ، ولا تبتسموا
إذا وصفت لكم اضطرابى أمامها وحيرتى .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتى . ما قبله
جاهلية معتمة . وما بعده نور وإشراق ، أحدثها وأسارقها النظر .
ولا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟
كنت يجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس . . ما كنت أدرك
قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . كأن جسدها تمنى
فكان ثوبها تحقيق أمنيتها ! وكأن الثوب نفسه اشتى ، فكان هذا
الجسد خليلته التى وجد لديها السكينة وطعم الحياة . . ثوب كم
أبدى وكم أخفى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة
تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان
والإفصاح . . وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة
فى رأسها معها تسابقت إليها واصطفقت راضية بجانب أختها ،
أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك فى زينة ، سعيدة ناعمة
بالدور الذى رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة ،
لما خدش جماله . وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله .
فيها سداجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . فم
متهم وعيون بريئة . . لم تهتم بى كثيراً . وما وجهت إلى غير
نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عندما انصرفت - وأنا أجر رجلى
جرا - كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى وجسدى

بأصابع توهم أنها تمسح وترتب ، وهى تندس وتنقب
 شعرت أننى عريت وقلبت ظهراً لبطن ، وفحصت واختبرت :
 قيس قامي ، وسبرت . وزنت وكيلت . عركت وعضضت
 بالأسنان ، ورننت على الأرض . . . حركت أوتار روحي واستمع
 لموسيقاها . . ثم استخرج من محبته كتابي الدفين ، فروجعت في النور
 صفحاته ، وقرئت سطور ه كلمة كلمة . كل هذا والعيون مترددة ،
 والشفاء مستفهمة . . ثم أصدرت حكماً لن يكون له نقض ولا
 إبرام ، إلى آخر حياتها وحياتي .

أيها الناس ! أشفقوا على مرة أخرى . ولا تبتمسوا من جديد
 إذا قلت لكم إننى تعبت حقاً ، ولكنى مع ذلك وجدت في هذا
 التعب لذة كبرى . . لم أخش حكمها . بل سررنى أنها تناولتنى
 بالفحص . كنت كالمريض لايسعده أمل الشفاء ، بقدر ما يسعده
 تقلبه بين يدي طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . انصرفت
 وأنا لا أزال ألوك في فمي لذة مذاقها . . ولما دخلت شقتنا ،
 حانت منى التفاتة إلى أختي ، فقلت في نفسي - والأسى يملؤها :
 « ما ينقصهما والله إلا أن تطول الضفيرة ، ويغطي الجورب السميك
 الركبة . لتبدوا شابتين من الريف . . من غد إن شاء الله ،
 سأعنى بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما ، وإلا كان
 فشل برناهجى المرسوم محققاً » .

ولكنى في غد نسيت كل شيء إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوغاً

لتكرار الزيارة فلم أوفق ، بل وجدت باب الشقة موصداً في وجهي .
 ألا أنهم رأوا لعابي يسيل وأنا أهدق في ابتهم خلسة ، فرثوا لحالي
 وأرادوا تجنبني التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدى زاد
 هياجي ، فإذا بي - وأنا المعروف باتزانى وأدبى - أفقد كل سيطرة
 على نفسى ورأيتنى ، لشدة دهشتى ، آتى بحركات وتصرفات
 لاتصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستبين برشوة
 الخدم ، فضحكوا منى . تصديت لها في الطريق . ألقيت
 أمامها رسائل . تتبعها كظلها . كل هذا وهى لا تتكرم على بكلمة
 أو بابتسامة . أقسم لكم أننى لأدري كم من الزمن مر على وأنا
 في هذه الحالة . قد يكون أسبوعاً وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق
 ذرعى ، وأحسست أن العذاب لو طال لقصفنى الألم ودمر قلبى
 وقضى على . هجمت عليها ذات يوم وهى سائرة وأمسكتها من
 ذراعها . لمسة فيها رعدة الغيظ والأمل ، وقلت لها صارخاً :

— ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لى عمل
 فى الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن أريد
 كلمه واحده : نعم أولا .

ففظرت إلى وابتمت . .

زرت معها معالم القاهرة ، فكأننى سائح يجوس خلال مدينة
 مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . . كنت أتلو كالبغضاء

قصيدة النيل ، فشرحها لي سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمني جمال معانيها
ولفقاتها : في حديقة الحيوان - التي طالما زرتها فلم أجد شيئاً -
كلمتني لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية
جمالية حزينة ، وشكت إلى وحدتها وآلامها : الفضل لسنية في
الراحة الكبرى التي شملت نفسي عندما آخيتهم جميعاً . . . من زحف
منهم أو طار ، أودب على أربع . . .

قالت لي ذات يوم :

سما العمل إذا ؟ إن بابا يرفض بتاتاً ، لأنك موظف صغير
ومرتبك قليل ، ولا يلدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة
في جاردن سيتي . . .

ولما رأني مطرق الرأس غمماً أضافت تقول :

- ولكن ماما في صنف . . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، علي أن تذهب نعمات
وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتي . . .

كلهم قالو لي إنني ساعة « كتب الكتاب » كنت شارد
اللب ، ثم إذا بي فجأة ابتسم ابتسامة خفيفة ، ظلوها من حرج
سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أنني - ولا أدري كيف -
انتبهت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهي تنطبق على ،
في المثل القائل :

« راح يصطاد . . . صادوه . . . »

« ما معنى (١) هذه الحياة ؟ »

ينخر هذا السؤال كالسوس في نفس حسين فرغلي كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كرموا مقاعدها وأطفأوا أنوارها يخف إليها قبل الغروب، فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول (الطاولة) ويدور اللعب بينهم — لا يقطع لحظة واحدة — كالمعارك الحربية في غليانها وقهقهتها . يتساقى اللاعبون كثرساً مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة، فيهلون من وهمها ويسكرون، حسين لا يلعب بل يكتفى بتشبع الحجارة والزهر بشغف كبير . يلتوى رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، كمروس ميكانيكية انقلت

(١) نشرت لأول مرة مع المجموعة ، يونيو ١٩٤٤ .

ضابطاً . وهكذا هو أيضاً في الحياة يعيش على هامشها ، ويلوذ بالشاطئ خوفاً من تيارها . عواطفه موزعة ، تارة مع الغالب ، وتارة مع المغلوب . فالمحايد المحروم من لذة المشاركة في الصراع يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقصاص . إذا دار الحديث فمن العمل والوظائف والدرجات ، حتى كأنهم الإبل ، يتجرون بالليل ما أكلوه بالنهار . . . أى عقل شيطاني تفتقت حيلته عن اختراع هذه الطاولة ؟ هي لعبة ساذجة متشابهة متكررة ، ومع ذلك لا ينقطع سحرها كأنها الحشيش أو الأفيون .

خرج حسين من الجو المكتوم المغمم بالأدخنة والضجيج ، وانطلق إلى الطريق . فوقه سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرح صفائها . تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خائية ، لا يكاد النظر يستوعبها في مواقعها ، حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبشرة بخلافات الألوان ينظمها نغم حلو جميل . لكل لون منها نصيب في إيقاعه ، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبينه ، كأنما هي أيضاً عين ترى ولا تسمع .

وبدأ حسين سيره إلى شبرا . وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار ، يلذ له أن يحتضن أفكاره ، ويحتل بها ، فيسرح ذهنه ، وتعود إليه ذكريات قديمة . عيناه تتكلمان تارة بالسرور وتارة بالحزن . ويهتز رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة . وقد

يتمتع باسمها . وقد تحدث شفتاه هذه « المصبة » الضئيلة التي يعبر بها المصريون عن بعض ما في قلوبهم من توجع وعطف ورتاء . . آه إنه الليلة أسف على حياته ، نادم من جديد . أما يأتي اليوم الذي يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه في مدرسة المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف تكسر عن الزواج بجمارته آمال تلك الفتاة التي خلبت لبه وسحرته ، ورضى بالزواج من إحسان . . خشى الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لاعتن حب ، بل قياماً بواجب ، فهي ابنة عمه . . . اطمأن لها لأنها ربة بيت ، هادئة ، معتكفة ، فماذا فعلت بنفسك يا حسين ؟ أدت ظهرك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف ، وآثرت حياة راكدة كالمستنقع . سرعان ما مل إحسان ، وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة المشوقة القل إلى امرأة بدينة خشنه اليدين . لم يرها مرة تستقبله عند عودته وقد سرحت شعرها أو اعتنت بزينتها . تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ . إن كان في الحياة مهنة يمحها أشد المقث فهي مهنة التدريس . هو عامل فرض عليه أن يبني الأساس ولا يتعداه ، ثم يجيء آخرون يتممون البناء ويتمتعون به . . . أى لذة في عمل لاتنجم أمامك نتأجه ، فتمنح النفس جزاءها من الرضا والغبطة ! ؟ .

ما فائدة التوفر على تعهد الفرخ وتغذيته ، حتى إذا نما ريشه

أقلت من يدك وطار ؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام ، والمدرس ثابت في مكانه ! وإن تلفت فإلى الماضي تلتفت . . . مافائدة تعليم هؤلاء الصبية ، وهو واثق بعجزه عن إساعدتهم ؟ فالحياة مليئة بالشراك والمصائد ، مخوفة بالمظالم والآلام والأحزان . سيخوضون غمار معركة من أشد المعارك تطاحناً وهولاً ، على حين أنه لم يسلمهم إلا بقشور من العلوم النظرية . وشقشقة لسان إن لم تكن تضر فهي لا تنفع . كم كان يود أن يكون محامياً . إنه يحس في نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادئ وسلامة المنطق . — وهذه مواهب لا تفيده في صناعة التعليم . ولكنها خليقة أن تتقدم به إلى الصفوف الأولى ، لو أنه مارس المحاماة . ود حسين لو أنه استطاع أن يدافع يوماً عن مظلوم ، أو يرد حقاً إلى صاحبه . . ولكنه عاجز . فما يكرب نفسه أنه يرى المظالم تتزايد أمامه وتلاحق ، ولا أمل له في أن يرى نهايتها ، أو يرى عالماً تسوده العدالة . هذا تفسير ما في نظرتة من حزن عميق مختلط بغیظ مكتوم . . ماذا يفعل ؟ إنه يقف طول النهار ينبج أمام تلاميذ كالقروء يلهون ويعبثون ، حتى يحف حلقه ويضطرب قلبه . هل نسي أن الطبيب قال له إن قلبك ضعيف يخشى عليه من كثرة الإجهاد ؟

وعندئذ تریث حسین في سیرد ، ووضع يده على مكان قلبه وتأوه . . . إنه يحس كأن إبرة تغرز فيه . . لقد ساءت حالته الليلة إنه الإجهاد الذي يخشاه . . فمتى تأتي الإجازة ؟ متى ؟

كان قد ترك الطريق الرئيسي وانعرج إلى درب ضيق ينتهي
بالمزارع . . سكون شامل ومنازل نائمة . .

حدثته نفسه :

— لو أستطيع أن أرتد القهقري عشر سنوات . : عشر
سنوات وحسب . . ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات
مثلاً من مستقبل عمري . . سنة بسنة . .

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر ، حتى خيل إليه أنه
يسمع زحيراً شديداً يتلاحق من ورائه . هل يجري في إثره أحد ؟
أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام . ومع ذلك استمر هذا الزحير
يسرع إليه ويدنو منه . طمأن نفسه يقول لها : لعله وهم وخيال :
فالليل عالم مجهول مليء بأصوات غريبة لانتينها . . ثم سار قليلاً
فإذا بد تلمس كفه ، والزحير يكاد يشق صباخ أذنيه . . سمع
حسين وقرأ أن شعر الرأس يقف عند الذعر ، ولم يكن يصدق ؛
في تلك اللحظة أحس كأن يداً قاسية جمعت شعره في قبضتها وشدته شداً
قوياً يكاد يتمزق منه جلد رأسه . وشعر حسين بأن اليد التي وقعت
على كفه لوح من الثلج . فقد جمداً قلبه ، وإن يكن جيئته قد
التهب لها وتصبب عرقاً . . .

التفت حسين مذعوراً ، فوجد وراءه رجلاً نحيفاً هو إلى القصر
أدنى منه إلى الطول . يرتدى ثوباً أسود كتياب التشريفات ، من

طراز يرجع إلى عهد غابر، ذكر حسيناً بصورة قديمة لأحد جلوده ..
والغريب أن هذا الثوب كان فضفاضاً كأنما فصل لرجل أطول منه وأشد
امتلاء... فقلد أى حسين أمامه رقبة نخيلة تائهة فى بنية منشة واسعة...
يريد ذقنه أن يعتمد على حافتها فيشتقها فرط ارتفاعها . . . لم ير له
يدين ، وخيل إليه أن الكمين فارغان ، اس فيهما ذراعان .
حدق بنظره فى تقاطيع هذا الغريب . ورأى - أو خيل إليه أنه
رأى - وجهاً إنسانياً ذا عيين وأنف وأذنين . . . ولكن عجباً
لماذا لا تستقر نظراته على هذا الوجه ؟ لم تنطبع له صورة فى ذهنه ،
كأنما وجهه هوة لولبية ، أو سرايب ملتوية أو صورة فوتوغرافية
مهزوزة . . .

أشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة المنتنة القاسية
التي غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الرجل يكلمه ،
إذا صوته صوت طفل وديع ، وإذا هذا الصوت الحنون وحده
يرأى قبضة اليد التي كانت تجذب شعره فيعود إلى رقاذه . .
وخامر قلبه شيء من الطمأنينة لم يدر سببها . قال له الرجل :

- لا مؤاخذه ياسى حسين . . . خشيت أن تغير فكرك قبل
أن أستطيع اللحاق بك . كنت مشغولاً جداً فى القصر العيني وفى
مستشفى الحميات . . فأنا - كما ترى - مجهد حقاً ولى عمل شاق
لا ينتهى . . سمعتك تتبرع بعشر سنوات من عمرك لقاء أن تعود

القهقري عشر سنوات مثلها ، وأنا في ضيق علم الله - ومحتاج
أشد الاحتياج إلى يوم ، فكيف بعشر سنوات مرة واحدة .

- لاشك أنك سعيد في حياتك . فلم أر قبلك أحداً يتعلق
بالدنيا تعلقك بها . .

- لا . لا . لا أريدها لنفسى ، بل لغيرى . . دعنى أتذكر .
نعم عندى أب قارب الرحيل ، وقد قدر له أن يرى ابنه الوحيد
الشاب يموت قبله . سأعطى الابن شيئاً من هبتك حتى أجنب أباه
تجرع غصة الألم . وهذا الشاب لو انتقل عن هذه الدنيا لحرم أولاده
من ميراث جدهم . سأعطيه سنة حتى ينتهى أجل أبيه . . وهذا
الفتى أحب فتاة غاية الحب ، سيموت قبل الزفاف - وليس
أشهى على من أن أمتعه بها ولو شهراً واحداً . فما أنت ذا ترى أن
هبتك السخية تكفى لبعض هذه الأعمال الخيرية . . لهذا أسرعت إليك .

خفت الأبحرة المنتنة شيئاً فشيئاً . . واستطاع حسين أن يقارب
وجه هذا الغريب . . . بل بلغ به الاطمئنان أن ضحكك في
وجهه وقال :

- مهلا ! مهلا ! هذه هبة كما قلت ، ولكنها - يا عزيزى
الأستاذ - ليست بلون مقابل . . . فهل أنت قادر على أن تردنى
القهقري عشر سنوات ؟

انتبه حسين إلى أن جوا من الطيب والرائحة الذكية تسطع من
مخاطبه . . . وتمنى لو استطاع أن يقترب منه أو يضع ذراعه في
ذراعه . . .

أجابه الرجل وهو يبتسم :

— ألم تقرأ في القرآن الكريم « ادعوني استجب لكم » ؟
إنني عبد من عباد الله لا أعلم أن أحداً قد كلف بمهمة شاقة
كمهمتي . . . وأنا مقبل على أدائها بإخلاص وبكل قوتي . .
حرصاً على رضى مولاي . . . وإني، لحسن الظن بكرمه ومنه ، لم
أتمس منه طلباً من قبل . . . فلا أظن أنه يخيب رجائي لو
سألته هذه المرة . . . كن واثقاً أنني أحقق لك ما ترجوه . . .

ود حسين لو أنه تردد قليلاً ، أو سألته مهلة ليفكر من جديد
ولكنه خجل من رقة محدثه ، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل . .
— لا مانع عندي . . .

— يالك من سخى شجاع . . .

وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلاً :

— لا . لا . إنني لا أعرف حساب زمنكم هذا . . .

ثم التفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال :

— سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا في تمام منتصف الليل .

قال له حسين :

— اتفقنا . . .

أجابه الرجل :

— هذا القول لا يكفي . . . لأنني أريد منك أن تهني السنوات
العشر بالصيغة الشرعية . فقل معي :

« أهيك عشر سنوات من عمري طائعاً مختاراً ، وأنا في
تمام عقلي وإرادتي ، على أن أعود القهقري عشر سنوات مثلها »
كرر حسين وراءه الصيغة كلمة كلمة ... فإذا بالرجل يربت
على كتفه ويقول :

— إنك أكبر المحسنين لو علمت . وليس أحد أولى منك
بأن يقام له تمثال . . .

ثم ابتعد عنه ، يتحرك جسده ، ولا يرى حسين على أي
قدمين يسير . . .

واستمر حسين في طريقه وهو ثمل لا يدرى هل يقتبط بفعلته
أم يندم عليها . همس لنفسه يقول : « إنك أسعد إنسان على وجه
الأرض ! سيقوم برحلة لم تنس لأحد من قبلك » .

وفجأة وقف حائراً وقال :

— ولكنى نسيت أن أسأله هل سأعود القهقري عشر سنوات
محفوظاً بما فى من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج . . . ليتنى
أدخلت هذا الشرط فى اتفاقنا !

عشر سنوات إلى الوراء ! سيغير حياته كلها . . . سينعم
بما حرم نفسه منه . . . سيتجنب كل أخطائه . تألى وجهه وأسرعت
خطواته ، وأحس أن نشوة غريبة تهز عطفه . . فإذا به يقف
من جديد وقد ساوره شيء من القلق :

— ليتنى سألتكم كم يبقى لى من العمر بعد تبرعى بعشر سنوات ؟
كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة ، فإذا رائحة المرحاض
تركم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف فى صفيحة
القمامة .

اعتاد حسين ، إذا عاد فى مثل هذه الساعة ، أن يجد شيئاً من
الطعام على المائدة فيتناوله بارداً وهو صامت ، ووجهه نائمة
لا تتحرك . . . ولكنه فى هذه المرة لم يكذب يدخل حتى سمع صوت
إحسان تنادى :

— من ؟ حسين ؟

وقامت إليه حمرة العينين ، مشعثة الشعر تقول :

— عجباً ! ما كدت تلخل حتى طار النوم من عيني وانتبهت
مذعورة لا أدري ماذا بي .

جلست معه على المائدة وسخنت له طعامه ، وحديثه عن
بعض توافه يومها ، ومع ذلك كان كلامها يتزل برذا وسلاما على
قلبه . . . هي زوجته ، وليس في حياتها أحد سواه . حبيسة داره ،
حياتها كلها وقف عليه وعلى أولاده . كثيرا ما اشتكت وثار
وضجعت ، ولكنه لم يسمعها تؤله بكلمة تخرج قلبه . . . حن لها
حسين وضاحكها ، بل عرض عليها أن يسهر معها ويتسلوا بلعب
الكونكان . . . وهي لعبة الورق الوحيدة التي استطاع أن يعلمها
لإحسان .

واستمر اللعب زمناً طويلاً . . . وتناول حسين ورقة يربح
بها الدور . . . فرفع يده مسروراً يقول :

— كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها (كونكان ١) كان الليل قد
انتصف



دخل عليه وكيل المكتب يقول :

— السمسار منتظر يريد أجره .

أطرق حسين برأسه ذليلاً . لقد انحدرت به الحال إلى أن أطلق بعض الممارسة يتصيدون له الزبائن من على القهاوى
لم يبلغ إirاده في هذا الشهر عشرين جنياً ، وإنه والله ليخشى أن يعود إلى داره ، فقد طالبت آمال بثوب جديد لا يقدر عليه . . .
من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعاً ؟ عاشرها وتمتع بقربها ، ولكنه يشعر أنه ظل طول عمره غريباً عنها . لا يدري ما يحول برأسها يريد أن يخضعها فلا تخضع ، ويأمرها فتتقلت منه طليقة . . . ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة التي يتبادلانها كثيراً . . . ثم - وهنا العجب - يضمهما الفراش فينسيان كل شيء في ضمة الجسد للجسد . وتعود العداوة واليغضاء في الصباح . . . طبيعة حيوانية يتعاضى الإنسان عنها ويتعالى ، وهو عاجز في قبضتها ، غريق ، في أحضانها : ترى أين إحسان الآن ؟ ألم يكن أولى بها - وهي ابنة عمه - من زوجها العامى الذى لا يحسن معاملتها ؟ ألم تكن راحته وسعادته في الزواج منها ؟ ولكنه تكبر وخان ، وجرى إلى آمال كالأحمق . . .

وسار حسين على مهل إلى داره . . . الحمامة ؟ هى مهمة مليئة بالكذب والخداع . كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام القاضى بكلام يعلم من قرارة نفسه أنه كذب وتلفيت . . . كل ذلك لقاء حرايم مملوءة لا تسمن ولا تغنى من جوع . . .

آه ! آه ! إنه أضاع حياته . وما فائدة جهاده في المحاماة
والناس كالوحوش الضارية واللبثاب المفترسة ؟ إن اكتسى وجه
الظالم بغلالة سوداء بغیضة ، فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع
رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضيئاً . . . ولكن حسين يتطلع إلى
وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم . . . كل منهم تنطوى
نفسه على الغل والحقد . لا يكتفى الظالم بمجبروته ، بل يهبط به
جنبته إلى اللس والكيد والتلفيق . . . وعسى المظلوم عن نبل المطالبة
بحقه وثوابها ، وامتألت نفسه مما . لا يرضيها استرداد الحق
بل الانتقام بأى ثمن من الخصم - ولو ظلما ! كم كان يود أن لو
اشتغل بالتعليم ، لتكون براءة الطفولة الساذجة هى مادة عمله ،
وليساهم فى بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق الفاضلة ، تبدأ به
مصر حياة جديدة . . . وهل هناك أنبل من وقفة المعلم أمام صف
من الصبيان ، يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى كل حركة تصدر منه
وكل كلمة تخرج من فمه ؟ هذا هو البناء الذى يرضى النفس .
وأى مهنة أخرى تهىء لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية ؟ أما
الآن فانه يجاهد فى المحاماة جهاداً زائفاً مضيعاً . . . أحقاً إنه
يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها ؟ إن صح هذا - وهو غير صحيح -
فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل ؟ إنه يحس فى نفسه
القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط . وهذه صفات توخره فى

المهام ، ولكنها خليقة أن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس التعليم .

قابلته آمال غاضبة تقول :

- لا أراك إلا والليل متقدم . . . وما أظنك غبت في هذا المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى . . . أكبر الظن أنك كنت مع صحبة السوء في هو وعيث .

- كيف أرضيك يا آمال ؟ ألا ترينني متعباً ؟

وضع حسين يده على قلبه وتهدد .

- إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم

ويلاطفونهن ويتسلون معهن . . .

- وماذا تريدن ؟

لوت خرطومها وتركته .

سار وراءها ذليلاً يقول :

- آمال ! تعالى . تعالى نلعب الكونكان معاً ، فأنا مهموم

أريد أن أتسلى . . .

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لا يحسر أن يمن عليها بما يفعله لإرضائها . . فكل خلعة منه لها يصورها خلعة منها له . . .

واستمر اللعب زمناً ، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور

فرفع يده بها مسروراً يقول :

- كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها « كوناك » ..

انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب ، ولكنه ليس بالغريب عنه . هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول . مال بوجهه الزكي الرائحة على حسين يقول :

— ياسي حسين ! هل أنت ذاكر ؟ لقد نفذت عهدي من الاتفاق . أليس كذلك ؟

ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء وقال :

— تم حديثك ولا تخف عني شيئا . أكاد أفهم الآن كل ما كان غامضاً على ...

— نسيت أن أخبرك في ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك عندئذ من بقيه العمر أكثر من تلك السنوات العشر التي تبرزت بها .

فهل أنت مستعد ؟

أسبل حسين جفنيه ، وخفق قلبه ومال عليه وجهه منح مترعج يقول :

— حسين ! حسين ! ما بك ؟

— من أنت ؟

— أنا إحسان ! ألا تعرفني ؟ لقد كنت أمامي منذ لحظة سليمان معافى . فماذا بك ؟ هل يؤلمك شيء ؟ رد على ! أأدعو الطبيب ولكنه كان قد فارق الحياة ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة . ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لا تقوى على تفسير ما حدث كيف حدث ! !

القديس ملاك

تحلل (١) القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء ،
 ورحل يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا وذنس المال ،
 ويدعوهم إلى الدقاق به في هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئا ولا
 يستقر في مكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة والاستتار ،
 خشن الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلد أسهل إيوأؤهم وإطعامهم . .
 وتشيعهم . ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم يصطلون الشمس طول
 النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل الذي يسير في مؤخرة الموكب :
 مديد القامة عليه سمة النبل ، مستد الخطوة كأنه متبوع لاتباع .
 ما أصنى يياض يديه ورخصة أنامله ، يشد بها حافتي مسوحه ، فكأنها
 مشبك من الأحجار الكريمة . . من يكون ؟ ولماذا يسير مطرق الرأس ؟ .

(١) نشرت في مجلة «الرسالة» : العدد ٢٧٦ ، ١٩٤٠/١/٦ ، من ١٤٦٦ .

إنه النبيل «ع» الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية . تربى في
كنف العز وعاش السعداء ، ولم تقع عينه على بؤس . ولما مات الأب
وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه . دعا أخاه المدلل وقال له : .
— لا أريد أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله ، ومقامك
في قلب أبي الكريم كان فوق مقامي ، فإن شئت عشنا معاً
لك مالى ، وإن شئت اقتسمنا الثروة بالتساوى .

فأطرق النبيل «ع» برأسه ، ولم يجب . غادر القصر واعتكف
في كوخ صغير أياً ما طويلاً خرج بعدها يعلن لمن حوله أن هاتفاً
هتف به بين اليقظة والنام يدعوهُ أن التحق بالقديس . فلما تزامى الخبر
إلى الناس علوها كبرى معجزاته ، وأكبروا في النبيل نزوله عن الغنى
والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز
في سبيل الله .

طارت شهرة الأمير النبيل بين الناس وتزاحموا حول الموكب
لا ليروا القديس ، فهم لا يجهلونه ، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم
كيف يبدو في ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم
أرضى نفساً وأهنأ بطعامهم وشرابهم . أما الأمهات والجدات فكن
يسبحن لله الذى سبق إرادته ، فاختر هذا الوليد لحياة كلها حرمان
وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما الفتيات
فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصه فوق المسوح الخشنة وتطلعن
إلى وجه الشاب الذى أصبح مناله صعباً بل حراماً ، شعرن

بقشيرة تسرى في أجسادهن ، وركن على الأرض يتمتمن بدعواتهن ، ولكن أحداً لم يفلح في أن يرى عينيه . . لماذا هو مطرق ؟ ولماذا يسير في مؤخرة المركب ، ولو شاء لكان في أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفي يوم مر القديس بحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن صاحبه ، فقيل له إنه ثرى عظيم لاهم له إلا اكتناز المال ، ولم يسمع عنه في يوم أنه أحسن بهم ، فعدل القديس عن مواصلة سيره ، ودخل القصر ليهدم منه أشيطان معقلا ، ويظفر بتخليص أرواح ساكنيه فوجد الثرى جالسا أمام مائدته ، تتكلس عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجته ، وعن يساره ابنته ، وأمامه أولاده ، ومن حواليه أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه ، لعلهما تبتسان بأمر .

امتلات الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل — ولعل لإطراقه ساعده على إجادة السمع — من أن يتنبه لضحكة رقيقة تحاول صاحبها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور أو دهشة ؟ أم هي سخريه ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تختال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجّر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشرر ، ثم يعظ . كأن قلبه يفيض بالغيث المهر . وسحرت بلاغته الحاضرين .

فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يميز بين السادة والخلم .

واختلت الفتاة بالنيل ، وجرى بينهما حديث خافت :

— لو أنك مررت علينا من قبل ، لحطت لك هذا المسح على
قدك ، فاني أشفق عليك وأنت تتعثر في أذياله ، وتتيه ذراعاك
في أكمامه ، فقل لي بالله عليك كيف تحتمله ؟

— لا يكربك الأمر ! فلست نالفاً إلى مرقص ، بل ساعياً
إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

— وبلى إذا ؟ لقد كنت أظن الرقص عبادة ، فما رقصت مرة
إلا شعرت أنني أقرب إلى الله مني في أوقات الفراغ والسأم .

وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ماكرة هازئة
كلها عطف وفهم ، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على
أشهى أطعمة ، وأضواء لمحة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .

جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولكنه استراح ، لعلمه
أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانه عليه .

فأجابها قاصداً هدايتها ، كأنه لم يغضب ولم يبال :

— وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين في أن كل هذا سراب ، وأن
هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كل آذان لسماع أناشيد
التسايح بحمدك ، الصاعدة من الكون ، المدوية في الفضاء ،
فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتي سماعها !

— إن الله قد أغدق نعماءه على الكون، ولم يحرم منها إنساناً له قلب وبصر ، فذهابك الآن تفرع باب الله دليل على أنك عشت إلى اليوم غافلاً عن جماله . وهذا ماض سيعقد لك في مستقبلك وإن جاهلت . خذها عني : إن الله لا يحب من عباده السائل اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه بمسبحة طولها أمتار . . . ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

— هل اعترف أنك فهمت أنني أعلم لماذا ارتدبت المسوح . أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها نصف ، والدنيا لأن كل لذة فيها تنقضي ، فإذا هي تقصر عن حد تتخيله ، وتسير في مؤخرة الصفوف لأنك لست على رأسها . ولو وقفت بين يدي الله لسألته . ما وراءك ؟ فتواضعك هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إنني أعلم أنك نشأت يتيم الأم ، ولو عاشت لوجدت في عطفها ما يرطب قلبك . وما أشبهه الآن بصخرة في أعلى الجبل . . . ومع ذلك لم يفقد الأمل فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق : انظر إلى ، وتمتع بجالي . ستعلمك قوة حبي كيف تؤمن أولاً بإنسانيتك، ليصبح إيمانك بعدها بالله . إن لأبي جماعة من مهرة الموسيقين ، إذا وقعوا على آلاتهم أرقصوا الجهاد . سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا أظنه يرفض ، وإلا لما كان قديساً — فإذا عليك لو خلعت المسوح وارتدبت أبهى الأثواب ، فقمتم إلى وانحنيت أمامي ، وتناولت

يدي ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضمتني إلى صدرك
ورقصنا فتمثلت النعمة في حركاتنا ، ثم أنفلت عنك وأنا أخبر بك
وأنت أدرى بي . . . وسرى أنه لا يزال هناك أمل .

انهد كل شيء من حوله . لو أنه أطاع وسواسه ل هوت يده
عليها يشدها من شعرها ، ويجرها على الأرض ، ولداسها بقلميه
أو لمال عليها يغمرها بقبلاته ، ولكنه خطا خطوة ليس عنها تكوص
ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق هو نفسه :
ولقد بقي في أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل) . إنه سيظل حيث
هو ، جاهدا في طريقه ، محتملا مالا تقوى على احتماله الجبال ،
آملا أنه سيري في النهاية بارقة الرضا في وجه ربه الكريم . . . ولكن
الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه في متناول يده . آلاف الأصوات
تناديه : أقبل ! اشرب ! إنني عطشى .

وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويدا رويدا تطأطأت الرؤوس
على الصدور ، وتصاعدت الآهات . وانفجرت الدموع ، وركع
الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى يديه
المرفوعتين إلى السماء .

وترك الثرى مائدته ، وقف يقول للقديس بصوت يغالبه .
البكاء :

— أسلمت قيادي إليك ، فأنا منذ اليوم من أتباعك . سأترك

القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع ، سأترك مخازنى
بعتيق شرايها ، والحقل بعجيج دوابه ، سأبعك كظلك ، ولن
أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضا كل هؤلاء : زوجى ، وأبنائى
وزوجاتهم ، وبنائى وأزواجهن ، والأصهار والأتابع . أرنا
الطريق ونحن فى أثرك .

لم يحرق القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير .
ولم يزم شفثيه ، فأبتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن
الجمع ، نظرته تأتأة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :

— لو تبعوك لخرب القصر ، وبارت الأرض ، ونفقت
الدواب . ومن أين لك لإطعامهم وإيوائهم وإيجاد عمل لهذا الجيش
العمرم ؟ هل يتكففون الناس مثلك ؟ والقديس من الواصلين
الذين يستند إيمانهم على صخر لا يتزعزع ، لا يعرف الشك ولا
الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل : « إذا ما حكمة
رسالتى ؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشر به ؟ وكيف يكون
الكيل كيلين والصاع صاعين ؟ وإن كان ما يصح لى هو الحق ،
فلا بد من أنه يصح للناس أجمعين » .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتر لحظة . فكيف يكون
قديساً إذا بدت له المسائل كما — تبدو لبقية الناس — متناقضة
مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ هؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون

وتفهم الأسرار فما يبدو عجيبياً هو ذات الحكمة ، وما يبدو متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

— يابني ! أحمده الله أن هداك أنت ومن مملك للحق ... على يدى ! إن الطريق الذى تريد أن تسلكه وعر ، لا يقوى عليه إلا القديسون أمثال : فامكث مكانك وأقبل على عملك ، واسكن إلى زوجك ، وداعب أولادك وبناتك ، وأشرف على شئون خدمك وحشمك ، وحقوقك وضياعلك ، وتمتع بأكلك وشربك ، على أن تعدنى أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله لنفسك فى كل لحظة حتى تعلم أن كل ماحولك زائل ، وأنتك ملاق ربك فمحاسبك حساباً لا يضيع فيه مثقال ذرة من خير أوشر .

بدءا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئا . فاستمر القديس يقول :

— لا تحزن ، إنك ستمكث فى القصر — فى نظرك — ولكنك تكون مع ذلك من أتباعى . ماقيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخيول ، فى حين أن الروح متبلد والذهن غائب ؟ ستبغى برزخك ، يلىمانك . . . ولأى على أننى لن أنساك فى يوم . فلن يغيب عنك ندائى بل سأحمل شخصك فى قرارة قلبى . سأشبع لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم تلتحقون بها ، فربطنى وإياكم .

وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ، ودبت فيها روح
البهجة ودارت الأطباق والأكواب ، وسكن الثرى إلى زوجته ،
وداعب أولاده وبنتاته ، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه .

والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديس يمين
بالانصراف عن يساره . . . ولكن هاتفاً هتف به ، فإذا هو
يتمتم لنفسه : نعم ! لا تيأس من رحمة الله .

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع ، واتخذ مكانه
بينهم ، لا في آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه
يلوذ به وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعوني ! »

ووقفت الفتاة صامته برهة ، ثم همست تقول :

— ياله من غر مسكين لم يفهم الوحي . لما نارت رحمة الله أن ابقى .

فإذا به يولى عنها ويتصرف !

ثم ضربت الأرض بقلمها وصفقت تقول :

— موسيقى ! رقص !

پیکی وینک

كم (١) من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ! ذراعك في
 ذراعى ، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير ؟ أتى يومنا المسير
 أم في غد لم يأت بعد ؟ أم هو في ماض من العمر قد ولى وفات .
 كان الطريق هو الذى يقبل إلى . يأخذ بيدى ، ويربى اتصاله
 بالآفق ، بالسماء ، بالأفلاك... على جانبيه دور هادئة المأوى كصدور
 الحاضنات ، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من نور الله . . .
 أما الآن ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدى فلا
 ينتهى . المسير سخرة ، والآفق قيد ، والسماء غطاء ، والنجوم
 ترمق الأرض شزراً . . . الدور سجون والناس أطيايف ذاهلة
 لا تدرى ما القدر . وإن شكت كفرت . .

مارأيت عاملاً في ترام أو في متجر أو في مقهى إلا سلم

(١) كتبت سنة ١٩٤٠ ، ونشرت لأول مرة مع المجموعة ، يوليو ١٩٤٤ ، وص
 اقرب للشعر المنثور . . أو ما أصبح يعرف اليوم بالقصيدة النثرية .

عليك سلام الترحيب والإعزاز ، فالحياة المتدفقة من روحك
تمسح عن النفوس جميعها صبدأ الألم والحزن ، وتنفض عن الوجوه
رماد البؤس والشقاء .

وأنت ، لا تستقر نظرتك على وجه واحد ولا تترىث .: تهيئين ،
وما تقدرين أى مال تشرين ؟ أفأنت عمياء كأملك الغريزة وأبيك
الحظ ؟ :

السينما مزدحمة وأنت لانهشين بأحد . المشهد مؤثر ، والناس
يبتكون ، وأنت ضاحكة :

— أأبكي من خيال ؟

ياأنتاه ؟ ! لا بكيك أيضا من حقيقة ما عشت ، . . .

ومن يدري ! لعلك قد انصرفت عنى يوم اختفائك عابثة
تقولين :

— أأبكي من خيال ؟ .

نقلت إلى أن خالتك ، أو تلك التى ترعمين أنها خالتك ،
حدثتك عنى بالأمس وقد تركتكما فى العربة :

— أهذا الذى تذكرين ؟ إنه ساذج ، هو فى يدك كالعجين
فلتهنتى به .

ما ألتى هذا الوصف ، بل رحبت به ورضيت : صدقت نظرتك
فى أم لم تصدق ، سيان عندى : إن الحب الذى يغمر قلبى

هو كل ما أسألك عليه من أجرة . فلا يهني تصفيق النظارة
أو صفيحهم . . .

ما أظنك أحببت أحداً أو شيئاً حبك الثوب الجديد . هو حب
صادر من قلبك ، عائذ إليه ، فأنت به قريبة العين ، سعيدة
ناجية من سيطرة الغير . . .
على لساني دعاء :

— ألا فليملك الحب يوماً . . .
ولكن قلبي يهمس :
— خيب الله مناك . . .

ماذا تظنين ؟ أحسبت يوم اختفائك أنني سأوى إلى عشنا
فأمكث أترقب ميعادك ، فإذا مضى تشاغلتي بكتاب أقرؤ
ولا أفهم منه شيئاً ، ونظرت إلى الساعة مرة وتناعبت أخرى حتى
إذا ما انتهت إلى مشاغلي التي أهملتها من أجلك ، هبطت الدرج
سريعا ، وانطلقت إلى الدروب والمسالك ، واختلطت بالناس . . .
أويلمور بخلدك أنني عندئذ أنسى كل شيء ؟ هيئات لخيالك ، مهما
سكر وعربد ، أن يدرك ما فعلت . . . لبثت أنتظر ساعة ،
ثم ليلة ، ثم يوماً ويومين ، أسبوعاً وأسبوعين ، شهراً وشهوراً
ومازلت أنتظرك . وأنا أعلم أنك لن تعودى ولكني أخشى — إذا
أنا لم أنتظرك وشاء القدر أن تعودى أو أن ألقاك في الطريق —

أحشبي حيثند أن تكون لهفتي على رؤيتك قد طواها النسيان
، طفلاً أوارها . ولست أريد إلا أن أقابلك مشبوب العاطفة ،
واله القلب ، ظامى العين . فانت لو تعلمين عزيزة على ، وهيات
لى أن أبتذل قلرك عندى . . . فلا تحمل الألم طول الدهر خوفاً
من إساءتك فى لحظة عابرة قد تأتى وقد لا تأتى . . .

اشتريت لها الخداء فليسته بعض اليوم ثم خلعتة :
— حنرتى الطيب من الكعوب العالية .
وألقته عنها ميتاً فى عنقوان الصبا . منعنى كرهى لهذا الخداء
السخيف الذى هم بأذاها من أن آسف على موته السريع . . .

أيها الفتاة الغريبة ! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك
الكامنة فى نظرتك . أنت ساذجة قد تعلمت المكر ، أم ماكرة
قد تعلمت السذاجة ؟ أكلبى ما شئت وامكرى ، فليس أحب إلى قلبى
من كذبك ومكرك . . .

هذا الأثاث اشتريته على عجل من أجل عشنا : ما نقبت ولا
اخترت . ظل طول رفقتنا أنانياً أبكم . لم تحيه نظرة فاحصة من عينيك .
ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه . وكنت إذا انتظرتك
وفات — كالعادة . ميعادك ، أتطلع إلى قطعه واحدة واحدة ،
فما حنت يوماً وأسعفت تساؤلى بجواب . حتى إذا أشرقت شمسك
تلاشى كالظلام من حياتى ؛

ولكن ها قد حل يومك - ككل ظالم - أيها الأناي الأبيكم . الآن
 بعد اختفائها نطقت ، بل ما عدت تطيق السكوت . لا ينقطع تساؤلك
 « أين هي ؟ » متى تعود ؟ » يكاد ينشق خشبك عيوننا جماعة تلهف على نسبة
 من شفتي ، وتكاد تتمزق منك أذرع تشبث بي وتستجديني الجواب ،
 أيها الثرثار ! ليج في الكلام ما شئت . فأنا اليوم - ولم العجب ؟ -
 كما كنت أنت بالأمس - أبكم ! ولكن لاعليك أيها الوفي الأمين
 أبجل الجريح أن يعبت بجريح ؟ ليس من رباط بين القلوب أفوى من
 الباهة المشتركة . أنا أيضا أيها الرفيق الكريم لا أدرى أين هي ولا
 متى تعود ! فضم بلواك إلى بلواي لعلها بهذا عليك تهون . . .
 أيها الرفيق اللقيط ! لأنك عندي الآن أعز من أطهر الأبناء ،

أيها الفتاة الغريرة . . . لم يكن لي أمل فيك ، ولا بنيت من
 حبك أكواناً ولا قصوراً . لا يركن إلى الأمل إلا من قصر يومه
 فاختلس من غده .

أما أنا فقد كان حاضري يفيض بي ويفيض عني .
 كان ! فكل ذلك قد ولى وفات . وكأن الذي أغدق على بالأمس
 غير مسئول - يتقاضاني اليوم ثمن الإسراف بالحرمان .
 وكم من محروم مظلوم ! . . .

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضي ،
 وكل حادثة ساقته إليك . أما أنت ، فقد مر الحول وبعض الحول
 ولست أدرى عنك شيئا : ما هممت بسؤالك ولا شككاً قبي من

ظماً . فليس الغموض الذى يحوطك إلا انبهار العين من نورك
الوهاب . وهل لك ماض ؟ إنك لست بنت . الحوادث ، بل أنت
أم الحياة ! ...



خاللتك عاماً وبعض عام . فما سمعتك تنطقين بفكرة أو
تبدلين رأياً . . ما تلوث شفتاك بالحكمة ، ولا نضح لسانك
بالفلسفة . . ما دلت الحوادث عليك معاني موهومة مزيفة ليهتر
لها رأسك استعاراً . . ما سمعتك تذكرين ولا تأملين . لا ماضى
لك ولا مستقبل ، بل كنت فى كل لحظة كمال الحياة لتلك اللحظة .
تنفجر منك الحياة كمنابع الأنهار ، لا يهمها أبدد النهر أم اغتاله
مستنقع . أتبخر هباءً أم سار لغايته إلى البحر البعيد . تثب
الحياة الغضة من عينيك . تسيل على صدرك . تتدفق من على
جسدك وأنت لا تشعرين . وكنت أنهل من معيها الصافي فأجلد
فيه نشوة لم أجدها من عتيق الخمر . . . وأنت — لشقائى —
لا تشعرين . فليس أكبر الألم أن لا يشعر الحبيب بالملك ، بل أن
لا يشعر بسعادتك



ما من مرة احتضنتك بين ذراعى إلا شعرت بقسوة الموت
وظلمه . هذا الجسد الغض المتألق ، تنفجر منه الحياة ، يصبح
يوماً ما أبخرة عفة وعظماً نخرة . . .



ألبستها العاملة أمام المرأة كل ما لديها من معاطف ، واحداً
بعد واحد ، فإذا يجمالها يطنى على التغيير والتبديل ، تبدو لها في كل
معطف فتنة جديدة . . .

وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعاً . . .

عادت إلى المعطف الأزرق . وجربته مرة أخرى ، ودار جسدها
أمام المرأة . وجهها ساكن ، ونظراتها ثابتة على توأمها . . . « رفقاً
بجيبك يافتاني ! » ثم خلعت ، وعادت إلى بقية المعاطف فلبستها
كلها واحداً بعد واحد ، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق وقالت
مترائية :

— هذا ! .

وهكذا نشاء الصدف أن لا يتعلق ذوقك إلا بأغلاها ! .

— تريثي ! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير . تعالى
أريك متاجر أخرى :

لمسته بطرف إصبعها وقالت :

— أقضى به هذا الموسم ، وفي العام القادم أشتري غيره . .

كم وددت لو أنك قلت : « تشتري لي أنت غيره » . .

دعوت الله أن يقسم لي شراءه ، كما يدعو السقيم ربه أن يمن

عليه بالشفاء . . .



كنت معك في أحضان الرذيلة من أتقى الناس ، لا تلوذ
شفتاي الخمر ، وما بيني وبين الله عامر . . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فقد سكنت إلى الخمر ، لا لأنساك ،
بل لأقوى على جر الماضي إلى الحاضر . لأعيش معك من جديد .
فأنا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله . . .



لقتك ذات يوم ، على غير ميعاد . في منعطف طريق : أغلب
الظن أنك تسكين قريبا منه ، وأنت خرجت عجلي لأمر . كنت
عاطلة من الزيتة ، غير مسرحة الشعر ، مهملة الملابس : على كتفك
معطف لعله معطف أخيك ، وفي يدك حقيبة لعلها حقيبة خالتك .
كنت لا تشعرين بنظراتي تعانقك من بعيد ، وأنا واقف أتردد بين
لذة اللقاء وراحة التشفى . . هذه التي أسرتني مضاعفة بين الناس
لا يشعر بها أحد . ملكة نزع عن عرشها ! هذا هو الطير المحلق
يهبط على الأرض . أين جمال جناحيه وهو صاف في السماء ،
من مهزلة اضطرابه وهو يحجل ويقفز ؟ !

ولما ذهبت إلى عشنا . كنت أهذا نفسا . حسبتني أشد قوة
على التخلص من سيطرتك ، ولكنك ما كدت تجتازين الباب حتى
هتف قلبي : « هي والله » ؟ !

كوفي ما شئت ، ليمسخ الإهمال صورتك ، ليقس الضنا على
عيالك ، بل فليشوئك الزمن الذي لا يرحم ، فأنت أنت عندي . لأنك

آخر علمى وفوقى ومنتهى تجربتى . لقد كملت بك حياتى
وتم وجودى ، ولن أزيد بعدك شيئاً . حتى خيانتك لم يزد
بها علمى : هى تجربة أصبحت بعداً أكثر فهما لألم الخلق
وأشد سخرية من ألم الخلق . فهنا العطف الذى أبطله باليمين ،
تسترده سخرى باليسار . . .



ولكن صبراً ! سيأتى اليوم الذى أنساك فيه . . . حين يشيب
شعرى وتتساقط أسناني ، وتنطفئ عيوني ، حين يحتضننى الفراش
فلا أقوى على التخلص من ضمته ، وأستسلم إليه مضطراً وأستريح ،
حين أفلح أخيراً فى جررجلى جبر الأبحاث عن الشمس ، محدقاً فى الناس
وهم حولي ، تخليق المشوق فى جلاديه : حين لا أستطيع أن
أرى شيئاً ، إذ يكون شيخ الموت واقفاً أمامي . أعد أنقاسه قبل
أن يعد هو أنقاسي . . .

عندئذ سأنساك ! فليس أقوى من ذكراك عندى سوى الموت . .
ولكن ، ألا من يخبرنى عندئذ كيف أمسيت ؟ وكيف مرت
عليك السنون ؟ . . .



هذه المخلوقات المنتشرة فى الطريق ، هاربة من الدور تارة ،
هاربة إليها مرة أخرى ، :
هذه الحشاة المتوسدة أرصفة المسالك : :

هؤلاء الباعة الجوالون في الزحام ، بعيدين بأنفسهم عن
الزحام كالأرواح الضالة . . .

كلهم ينطق بالقدم والنوام : ما حلول جيل منهم محل جيل
إلا كالثعبان يبدل جلدا بجلد . . .

« كننا كنت أراهم . . . أما بعدك فهم لدى الآن سياح يهبطون
بلدًا غريبًا . وجوههم بلهاء في جهلها : نظرهم تائهة لاتستقر ،
ولا تقوى أرواحهم المهاجرة أن تقول عن شيء : « هذا لي ! »
كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتى برؤياك : »

عندما كنت أخرج معك في هدأة الليل ، كنت أشعر أننا
وحدهنا في هذا العالم ! تناسينا الأفلاك والنجوم ، نسينا الليل
نسينا الناس :

وكان في نسيانها أكبر اللذة والسعادة .

أما اليوم : بعد اختفائك ، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير ،
والليل مغمض الطرف ، والناس هم هم . . .
فأجد في نسيانها أكبر الألم والعذاب . . .

ألف ألف فتاة مثلك عاشت ، فلمعت حينها لمعان حينيك ،
وافترت شفتاها عن مثل بارق ثغرك ، ثم طواهن الموت واندثرن في
التراب . . قبلة واحدة منك لي كانت تكفي لبعث هؤلاء الموقى الجائعات

للحُب بعد طول الرقاد . . . في قبلك لهيب ألف ألف شغرامى . . .
أصبحت من أجلك أحب الموتى مثل حبي للأحياء . . .



وأعرب ما أعجب له أننى لأسأل عن سبب اختفائك ، وهل
يستطيع من عاش معك معلوم المنطق ، أن يعود فيتهم العلل
والأسباب ؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبي . . إذا فلن أسأل
ما حيت . وإذا مات العالم معترأ بعلمه - فسأموت أنا معترأ
يجهلى . .



قرأت بحثاً كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على المنطق
العقلى ، ليثبت أن الإنسان مسير لاخير . . فما اقتنعت وما
فهمت أوله من آخره . .

وتجيشين أنت ، أيها الفتاة الغريرة ، فتكفينى نظرة واحدة
من عينيك لأومن بالقلدر وبالخبير . . لأننى ألغيت معك منطقى
وعقلى . وقنعت بالروح فأمنت .



لجأت إلى الكتب المقلسة الطاهرة أستنبها : أيجب الرحمن
دعوة العاصي ؟ فلانى أريد إذا ما وقفت بين يلى الديان أن
أسأله ، قبل أن يغفر لى ذنوبى ، أن يغفر لك ذنبك . . .



العالم مضطرب . والمدافع تقصف ، والدماء تسيل . الدمور
تخربت ، والنساء ترملت ، والأرض أمنا العجوز في اللهب . . .
فماذا يكون شقائي باختفائك مع كل هذه الآلام ؟ أصرخ ليخرب
العالم مادمت أنا غير سعيد ؟ لا وألف مرة لا ، بل أدعو الله
أن يعيد السلام حتى تنعمي يا حبيبتى أنى كنت بشابك في ظلاله
وإن حرمنى هذا السلام لذنى الأخيرة . . . لذة التشنى !



في المساء أقول : الفرار الفرار يا نفس . حيثما حاولت الاستقرار
والاطمئنان للخلو والعدم . من يلومك بعد أن ذقت معها طعم
الوجود ؟ عودى . ارجعنى أيتها النفس الفطيم إلى ظلامك وأوهامك ،
فلست والله تدرين بعد اليوم ، إذ تطوف بك أشباح السعادة :
أهى ذكريات الماضي أم آمال المستقبل ؟

وفي الصباح أنتفض على بسمه الفجر ونشوة الطير — أسمعها
تقول : « أنت يا هذا الذى سعدت بالحلب ، قم ! إنما العيد
لك ! » مهلا أيتها الطير ! إنك تعيش ملء لحظتك للحظتك ، بيد
أن نفسى تتوقع عند الصباح قدوم المساء . . .



ودعت القاهرة عهد السلام ، فأطفأت أنوارها ، وفاضت
كالقذح أترعته يد مرتعشة لسكير زائع البصر . . . واكتظت
طرقاتها بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى ، لم يبق

موضع لقدم في ترام ، أو في سيارة أو في ملهى ، رأيت الكثيرين في هذا الزحام كالأسرى على وجوههم علامات التأفف والكرب والاختناق ، يودون الخلاص . فلا شيء يضيق به الإنسان ضيقه بقرب أخيه الإنسان . . . أما أنت فكنت في الزحام كالسمكة في الماء ، تطبق عليك الجموع ، ثم تنكشف وتطبق ، وأنت ناعمة البال قريبة العين ، بل كنت أجمل ما تكونين وأنت رافعة الرأس في الزحام ، تتلاطم أمواج البشر حول منارتك : ما سمعتك تشكين أو تتأقنين . . . ما زاد تلفتك ولا ضجرت نظرتك ، بل كنت مرحة كأنك في مهرجان . . . وكما رأيتك سعيدة بالحياة رأيت الحياة سعيدة بك . . .



يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيل الغروب وأنت تقولين :

— : : . أعجبني الثوب لولا أزراره . .

ودوت صفارة الإنذار ، وهاج الخلق وماج : هل تذكرين كيف رأينا لابسى الجلابيب والحفاة هازئين ، والموسرين هارين ؟ وأينا شباباً في شرخ الصبا غير عابئين ، وشيوخاً على حافة القبر زایلهم كساحهم فهم يحرون إلى الخائبين نشطين . . .

وقفت مكانك وتلفت بمنة ويسرة ، ثم قلت :

— أنا خائفة ! :

أخذتك إلى أول بناء لقيناه ، وجلسنا مع بوابه النوبي كأن
ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفترق طول الحياة . . .

ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات ، واشتعلت بلهيب المدافع
وانفجار القنابل . . . ولما اهتزت النوافذ والأبواب ، وعلا الصراخ .
امتقع لونك . وعرقت يدك وطال صمتك . . .

ثم هتفت الصفارة بالأمان ، فقممت واقفة ، ووضعت ذراعك
في ذراعي وخرجنا ، وكان أول حديثك :

— . . . لأن طرف الزر الأوسط على الكم اليمين شبه مخلوش . . .



تقلت بعدك بين نساء كثيرات : لم أزد مع كل منهن عن
لقاء واحد ، وفيهن من هي أجمل منك وأشد سحراً ، ثم أفر ولا أعود ،
لماذا ؟ أللحسرة ؟ لا : فأنا أعلم أن اختفاءك قد أذابك في يم الحياة ،
وهيات أن تعودى ، ولو عدت لعدت غير ما كنت . . أللغيرة ؟
هل تخشى روجي أن تكون كل امرأة جديدة بين ذراعي رجلا
جديداً أنت إذ ذاك بين ذراعيه ؟ قد يكون هذا ، ولكن هل لي أن
أصارحك ؟ اننى أفر ضناً بنفسى على غيرك ؟ فهلم الذى تحسبينه
فى انمحاء هو غاية الكبرياء والاعتزاز . . . هو الحب ! .



أحييت قبلك اثنتين : واحدة ثم أخرى : كم أقسمت
صادقاً بين أيديهما أحر الإيمان على الوفاء والإخلاص حتى .

الموت . . . ثم افترقنا . . . وهدأت . . . ولم أعد أذكر شيئاً . . .
غير أنى كنت فى غيبوبة النشوة أنادى الأولى بين خراعى الثانية :
وكم فاجأت شفى تتمان باسم دفين وأنت بين خراعى لاتشعرين . . .
فهل الذى جرى عليهما سيجرى عليك أنت . أيضاً ؟ إن الزمن يلح
على بالخلاص فأعصيه ، والمنطق يسخر منى فأسخر منه ، والحياة
تشبث بتلابيبي فأتملص من قبضتها وأفر . ولكن هل أقوى على مغالبة
كل هؤلاء الخصوم مجتمعين ؟ سأنساك ! سأنساك ! ولكن هيات
لى أن أنسى - أننى نسيك . . .



الآن بعد اختفائك . أقول وأنا وجل : هل أحبيتها لأنها
ذكرتني بمن مضى ؟ أفى نظرتك أم فى صوتك أم فى سناجيتك
لقيت من خلعت أننى دفتته ؟ ولكن لا ! ما فات مات . مات
إلى الأبد . ولم نخدع أنفسنا ؟ الذكرى إنما تجر من القبر هيكلًا
نخرًا بالياً فى لون أغبر وكفن حائل ، أجوف قد نزع منه الكلام .
نومىء فلا يفهم ، ونشير فلا يفطن . عدم متحجر ، قائم ونحن
نضطرب ونلدور ، فلا نعرف إقباله من إدباره . إن بصيصاً من نور
خافت ينبعث من حى ، كاسف جميع الشمس الغاربة ! الآن
أومن أننى أحبيت من سبقك ، لأنهما كانتا تشبهانك أنت . . .



يارب ! يا أرحم الراحمين ، وسعت رحمتك حتى المهزومين

وثورة المحرومين وقد تاهوا في ملكوتك . ما أجهلهم وإن كانوا مؤمنين ! :

وسعت رحمتك من أضلته بصيرته ، فججد ، وأنكر ، وكفر
كفر الأعمى بالنور . . .

وسعت رحمتك من ركبته الجهل ، وساقته الحماقة فتعالى وأبى
السجود ، أنفام أن يرسف فيما توهم من قيود .
بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك ، فجذف
وتنرد : :

لأقول بمثل قولهم : لماذا خلقت الشر ؟ لماذا برأت الرذيلة ؟
والكنى أسألك يا إلهي : لماذا جعلت الحق على النفس ثقيلًا ،
والباطل هينًا ؟ لماذا خلقت الفضيلة مملة والرذيلة فاتنة ؟ لماذا
خلقت الحب روحاً هائمة لا تخضع لعرف أو لقانون : طيراً
لا يحط إلا ليحرم ؟ يفزعه الأمن والسلم والنعيم ، والحياة عنده
وجدد ووله وهيام ؟

لا يستقر ولا يهدأ ، لا تزيده العبرة إلا استهتاراً ، ولا النصيحة
إلا عناداً : : : لم جعلت السعادة سرايا والوفاء محالا ، والنيات
مقعدة ، والنسيان حذاء ! :

أنت مطلع على الضمائر والقلوب ، فاعطف اللهم عن
تناقلت قلساه في الطريق سوى فلم يقو على اللحاق بالقافلة

تفصد عرقاً ومللاً ، - وانحرف إلى البداء ضللاً يتاجى النجوم ،
وكل زاده نجواه لنفسه :

— ما ظنك بالله العلي القدير ، الرؤوف الكريم ١ .



أجوس بعمدك خلال القاهرة ، فأعود من أحيائها الأوربية
بقلب فاتر كليل ، وطعم بين المر والحلو ، كفقير يرتد عن زيارة
ابنه الغنى العاق ، وإن عز على قلب أبيه . . . يضيع منى شبحك
في الأوبرا وجروني ، وبين شبرد والكونتنتال ، فاذا قادتنى
قدماى إلى سيدنا الحسين ومررت تحت البوابات المرمية ، ووقفت
أمام الجوامع العتيقة ، هصر الشوق قلبي هصرأ . . .

فأنت عندى هذا التاريخ .

وإذا مافاض بن الحنين إليك أبكر إلى قصر النيل مترقباً
جموع الفلاحات قادمات من الريف ، على رء وسهن سلل الخضر ،
ثيابهن سود ، على أرجلهن الطين ، معتدلات القوام ، في وجوههن
المجهدة عيون صابرة . لا ينقطع تدافعهن ، ولا ثرثرتهن . . .
عندئذ ألقاك . . . فأنت عندى هذا الوطن . . .

ويغلبني الوله على أمرى يوم « طلوع القرافة » حين أتبع
هنظري عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأسرة كلها رجالاً ونساء ،

شيوناً وأطفالاً ، أمامهم « السحارة » المنتحرة من قبور الفراعنة ،
يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد في مدينة الأموات ،
فأنت عندى هذا العيد ! .



الآن أذكر ، والآن فهمت ...

فى صباح اليوم الذى اختفيت فيه ، كنت أجول فى خان
الخليلى ، فنادتنى من سجنها الزجاجى مسبحة جميلة وأشارت
إلى أن أأخذنى معك .

تناولتها بوجد ، وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أو اصر صداقة وثقت
أنها ستدوم . تساقط حباتها كقطرات الماء على الغدير . حديتها الخافت
إلى : عن الألفة بين القلوب فى عالم الوحدة ، عن الطمأنينة فى
اللقاء المقسوم وإن طال الغياب ، عن الوجع من الفراق المحتوم رغم
اللقاء . . .

عدت بها إلى عشنا ، فلم أكد أدخله حتى انقطع من حيث
لاأدرى نحيطها وتناثرت حباتها . أهو نذير أم شيطان يغار ؟
جثوت على الأرض ، وجمعت حباتها ، وعدتها فإذا هى تنقص
حبة . دسست يلى ، ونبشت بأظافرى تحت المقاعد والسجاد . ولكن
عنا ! فحزنت وأسفت .

قد تسألين : أكل هذا العناء من أجل حبة واحدة صغيرة ،
وفى يدك منها عشرات ؟ .

فأجيبك : يمكننا مسبحتي ! لا يحيا جمالها إلا بهلة الحبة الواحدة
الصغيرة . : التأهة . ! (١) .

(١) لعل القارئ قد لاحظ أن هذه المقطوعة الأخيرة التي تتحدث من الحبة
الثالثة والثلاثين في المسبحة تكون هي نفسها المقطوعة الثالثة والثلاثين في هذه
الأنشيد أو « حبات » هذه القصيدة من « الشعر المنثور » التي تدور كلها حول
ذكرى الحبيب الضائع .

فهرس

صفحة

٩	اشجان عضو منتسب
٥٧	(سيرة ذاتية بقلم : يحيى حقى)
١٢٣	قنديل ام هاشم
١٣٩	السلحفاة تطير
١٥٣	كنا ثلاثة ايتام
١٧١	كن ٠٠ كان !
١٨٣	القديس لا يحار
١٨٣	يبنى وبينك

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف
ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا
تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى
تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشباب - للأسرة
كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها
عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال
الحلم يخطو ويكبر ويتعاضد ومازالت أحلم بكتاب لكل
مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه
التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت
وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع وال
المتجددة.

سوزان مبارك

Bibliotheca Alexandrina



0347417



مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشباب - للأسرة
جمعية البرمجة لتكنولوجيا

مكتبة الأسرة

2000
مهرجان القراءة للجميع

١٢٥ قرشاً